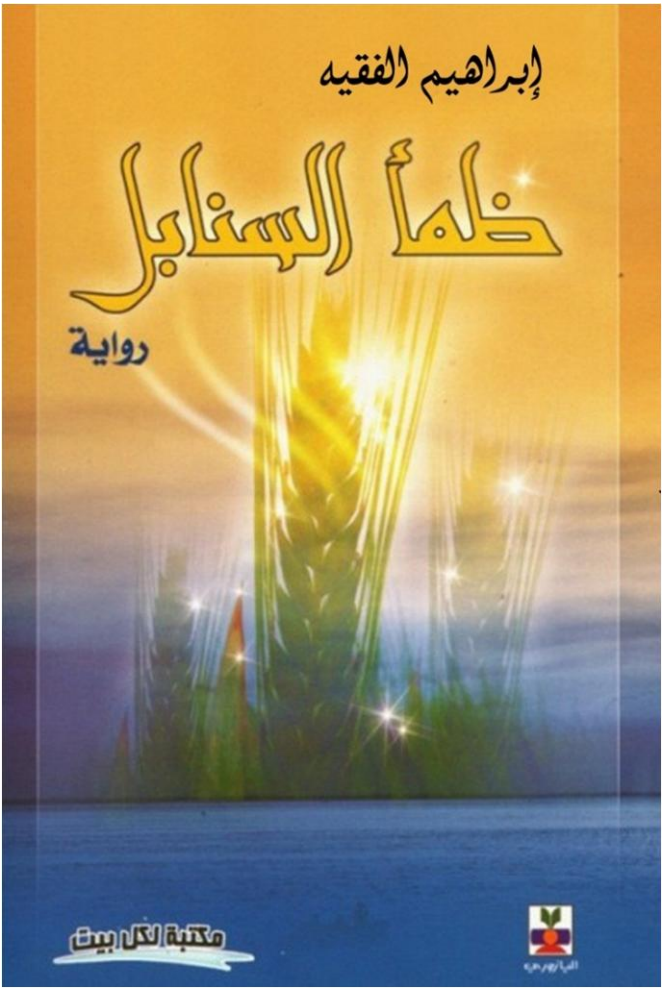
إبراهيم الفقيه
ظمأ السنابل
رواية
مكتبة لكل بيت

إبراهيم الفقيه

ظمأ السنابل

The ears thirst

رواية

إبراهيم الفقيه
المؤلف معروف أيضاً باسم :إبراهيم عوض الله الفقيه

الطبعة العربية – ٢٠٠٧

جميع حقوق الطبع محفوظة

عمان - الأردن

لقد اخترتُ لهذه الرواية ما توسّمت فيه التوفيق إلى هذا المعنى.. لكن التوفيق - في الحقيقة - له مفهوم نسبي في صنعة الكتابة، فالكاتب يحلم دائماً بأقصى ما يستطيع أن يفعل، وليس هناك وصفات جاهزة، فكل عمل أدبي هو اختبار، استكشاف، ارتياد أرض قفر، والاختبار ضربة لازم في صنعة الكتابة، ولا تنتهي التلمذة أبداً.

فيرا بانوفا / كاتبة سوفييتية
من رواية رفاق الطريق / شيء عن حياتي وعملي.

الفصل الأول

١

كنت نائمة، لا لم أكن نائمة.. كنت مسترخية أدرج مع أحلام الطفولة التي توارت خلف ملاعب النسيان.. أخي "محمود" كان حاضراً في منامي.. أيقظتني جدتي بصوت مرتفع "جهاد، جهاد.. قومي لقد بدأت الحرب".. كانت الساعة الرابعة فجراً.. أفقتُ مرغمة على دويّ القنابل والصواريخ، والتلفاز يبث مشاهد الحرب على العراق.. ظللت وجدتي يقظتين حتى الصباح، والسماء تمطر غضباً في شوارع بغداد.. روحي كانت تصرخ بصمت مفجع وأنا أرقب التلفاز.. ألملم تفاصيلي وأتذكّر الماضي والحاضر.. كان الجميع يتيهون في الشوارع وفي الصحراء.. الأطفال يركضون باتجاه منازلهم والذعر يملأ عيونهم، وجدتي تخاطبهم عبر التلفاز "لا تخافوا، لا تخافوا يا أولادي، الله يحميكم".. والجنود الأمريكيون يدخلون منازل البصرة، يفتشون البيوت، يبعثرون محتوياتها، والشباب يركضون، كلهم عادوا إلى منازلهم سوى أخي محمود.. محمود دمعة كبيرة تحجرت في

عيني.. من خلاله كنت أتنفس ما أجهله في حياتي، وتمنيت في قرارة نفسي لو كان حاضراً ليشرح لي ما حدث وما يحدث.

غياب أخي عن البيت أربك حياتي.. عادت الكوابيس وسكنت أحلامي من جديد.. تداعى إلى سمعي صوت جرس الباب، وقبل أن أفتح سمعت صوت أخي "صابر" من خلف الباب يقول "والدك في حالة نزاع ويطلب رؤيتك".

لم أفكّر طويلاً.. ارتديتُ وشاحاً على رأسي، ويمّمت وجهي باتجاه منزل والدي.. شعرتُ أن عاصفة مجنونة تجتثني من جذوري.. كنت أحمل أوصالي المتعبة وأتوكأ على أخي صابر.. ألهث والظلال ترسم صوراً لأشياء غريبة ومزعجة.. دلفتُ إلى غرفته.. هالني منظره.. روحه المتمردة هي التي استقبلتني لا جسده المتهالك.. كان مسجّى في الفراش ومغطّى بحرام صوفي تتوسّطه صورة نمر.. استجمعتُ شجاعتي واقتربت منه، جثوتُ عند قدميه.. مرّت اللحظات مثل عمر طويل.. كان الرمق الأخير من لحظات عمره يطل من عينيه، والنفس الأخير الذي يخرج الروح كان يتمطّى ويتطاول.. قطع أحد الأقارب جبال الصمت وقال "وحّدوا الله".. وتعالت الأصوات "لا إله إلا الله".. همست أعماقي "ينبغي الابتعاد عنه وفتح الباب والنوافذ لتمكين الروح من الانسلال أو الخروج من الجسد بأمان وراحة".

فجأة، تعلقت نظراته بوجهي.. كان المساء يقترب، وكنت أفكر في كل اللحظات التي مرّت عبر حياتي.. "يا الله، أيّ غفران كان بإمكاني منحه إياه!!".

منذ ثلاثة أيام فقط، وقبل بداية الحرب على العراق بيومين، غادر والدي المستشفى.. كان يعاني من نوبة مفاجئة، ولم يتسن للأقارب نقله إلى المستشفى من جديد.

تجمّع الأخوة والأخوات والأقارب في ساعات قليلة.. انتشر خبر الاحتضار مثل النار في الهشيم.. ظهرت دمعة وتوقفت في عينيه، دارت حدقتا عينيه.. تبعني بنظراته.. أحسستُ بعمر كامل يطل من عينيه.. كانت تعابير وجهه تنم عن مشاعره.. تراخت أعصابي، وشعرتُ أنه يطلب الصفح ويأمل بحياة جديدة.

فجأة وجدتُ نفسي أبكي وأرتمي على صدره طالبةً منه السماح، ودموعه تقفز وتستقر وسط عينيه.. لم يتكلم، وراحت روحه تتوارى خلف ملاك الموت.

مثل صحن ينكسر إلى شظايا فجأة، كان والدي يحاول تركيب عينيه، ويلملم الكسرات المتباعدة في مسامات وجهه دونما حيلة من أمره.. تعالى إلى سمعي صوت المؤذن يرتفع وينخفض ويتماوج ويمدني بإحساس غريب.. شعرتُ أني مثل عصفور ذبيح يتلوى ويعارك بقطرات دمه أخر لحظات الحياة، وأنا أحاول

أن أمسك بتلك الروح الصاعدة كنسمة الهواء.. بدا الآذان بحراً عميقاً.. غرقتُ في متاهة من النحيب.. نسيتُ كل شيء، لم أعد أتذكر غير لحظة الموت، وبقيت للحظات طويلة أجاهد كي لا أبقى وحيدة أمام نظرات أبي.. كان الموت جاثياً أمامي، وأنا ضائعة وسط ظلام حالك.

التراتيل القرآنية كنت أسمعها من الأقارب بخشوع.. استيقظ والدي مذعوراً.. لم يعد على وجهه ملامح موت.. جسده المتهالك ما عاد يمتلك روحه.. سيطر الهلع عليه.. ساعته قد حانت كما يقال عن صحوة الموت، أو هكذا خُيّل لي.. حاول المقاومة، استعطف بالنظر، طلب مهلة أخرى، ساعة أخرى، بضع دقائق أُخر، لكن قشعريرة الموت وبرودة الجسد كانت الأقوى.. أحسستُ به يُبحر في الماضي.. تداعت المدن والأيام ورحلة العمر في ذاكرته.. القدس، قرية صوبا، الرحيل، الهجرة، بلدة الكرامة، الأبناء، عمان، الصحراء، الضياع، الفراغ، الندم، الندم.. وراح يستسلم لقدره لحظة بعد أخرى.

زاغ بصره، حاول فتح فمه، حاول النطق والبوح بما في أعماقه.. فاض دمعه واختنق صوته قبل أن يكمل الشهادتين.. أسرع أحد الأقارب وبلّل قطعة من القطن بين أصابعه، رطّب شفتيه وألقمه قطرات من الماء في فمه، حرّك لسانه، وبصعوبة

ابتلع نقطة واحدة.. انسابت نقاط أخرى جانب فمه، واستقرت على رقبته.

تأملتُ وجهه ثانية، غامت الدنيا في عيني، لم أعد أرَ وجهه الحقيقي، أهداني ابتسامة عذبة لم أرها على وجه إنسان قط من قبل.. شعرتُ أن والدي لم يعد يُبصر.. لفّه ضباب، وملأت عينيه غشاوة.. ترجّلت الروح مقهورة وأخلت سبيل جسده.

شعرتُ أني أسبح وسط حقل أبيض سرعان ما تحول إلى نسيم بارد.. قشعريرة غزت جسدي وأنا أصرخ وأتشبّث بجسده، ضعيفة وعاجزة بدوت، ودونما أسباب مفهومة لديّ، تحجرت الدموع في عينيّ فجأة، واختنق صوتي، ولم أتمكن من صياغة أية كلمة.

مسّد أحد الأقارب بأطراف أصابعه جبين والدي وأسبل جفنيه، ثم أسدل ستاراً على وجهه ووقف مهلّلاً "لا اله إلا الله "، وردّد الحاضرون بصوت واحد "محمد رسول الله".

***

٢

رحل والدي وذكرياته ما زالت تنخر في ثنايا ذاكرتي.. ذكريات قديمة تنبض في صدري مثل جمر تحت الرماد.. أتذكّر.. أنا لا أتذكّر.. أنا ما زلت أعيش طفولتي المبكّرة في كنف والدين متنافرين.. صدر أمي كان ملاذي الذي يحميني من نظرات أبي، ويهب الطمأنينة في نفسي.. كنا نعيش في بلدة الكرامة، وكنت في الرابعة من عمري يوم أن شعرت أني كبرت فجأة، ولم يعد بإمكاني الرجوع إلى طفولتي أو التراجع.. لم يعد بإمكاني حتى النظر إلى الألعاب التي بين يدي أطفال الجيران.

تلك الليلة، عاد والدي من عمله باكراً على غير عادته، وكانت والدتي عند الجيران.. انتظرها أكثر من ساعة.. وقف عند الباب الخارجي وأخذ يرقب الطريق، تلفّت يميناً وشمالاً، ثم عاد إلى الداخل يكيل الشتائم، ويلعنها.

كان يقف متخفياً خلف الباب عندما عادت والدتي فرحة تدندن بأغنية قديمة.. وبلا مقدمات صفعها على رقبتها ولعن والدها، وتوالت الصفعات على وجهها وعلى رأسها مثل ضربات مطرقة

فولاذيـة.. صـرخت والـدتي وانهـارت أمـام صـفعاته الفجائيـة المتلاحقة.. شدّ شعرها بقوة، جرّها على أرضية الغرفة، ضرب رأسها بالجدار، نزف الدم من رأسها وسال على وجهها.. تمرّغت بدمائها وأخذت تصرخ.. صرختُ أنا أيضاً، لطمني وصرخ في وجهي أن ألزم الصمت، تكوّرت ورحت أرتجف رعباً.. ظهرت جدتي داخل البيت فجأة، دفعت والدي وحمت أمي بين ذراعيها، لعنته ولعنت الحليب الذي أرضعته إياه.. لم يتوقف والدي، دفع جدتي خارج الغرفة وأغلق علينا الباب من الداخل، وسمعت جدتي تقول من خلف الباب "دمها في رقبتك، طلّقها بس لا تضربها" واختنق الصوت مبتعداً تنادي على جدي.. ركل أبي أمي ثانية.. وقعتْ على الأرض.. وضع قدمه فوق رقبتها وصرخ "بوسيها، بوسي حذائي يا بنت الكلب، وإياك أن تخرجي ثانية من البيت دون إذني وعلمي".

اختنق صراخ والدتي وكاد صوتها يتلاشى، وجدي يطرق الباب ويحاول خلعه من الخارج.. تحوّل الإنسان الطفل في داخلي إلى وحش، اندفعتُ إلى ساق والدي وحاولت أن أعضّه.. ركلني وأعاد قدمه على رقبة أمي، أرعبني الخوف، صرخت، شيء ما أطبق على فمي.. انقهر صوتي والتجم، انحلّت الأنوار إلى ظلام دامس، واختفى وجه أمي تحت نعل أبي.. ارتجفتُ وانكمشت في

زاوية الغرفة مع شقيقتي "وفاء" التي لم تتجاوز عامها الثاني.. ضممتها إلى صدري ورحتُ أخنق دموعي بصمت وخوف.

قبّلت أمي حذاء أبي، ووضعت نعله على وجهها ورأسها، اندفع جدي إلى الداخل فجأة، كان يرتدي غترته البيضاء وعقاله الأسود في يده، بينما رفع قمبازه سكّري اللون عن ساقيه وربطه تحت حزامه التركي العريض الذي تتوسطه نجمة وهلال نحاسي على جانبي وسطه.. وبدا سرواله الأبيض الطويل مثل بنطال واسع عريض.. هاله ما رأى، "اتفو عليك يا قليل الأصل، أنت بدّك اتحمّلنا دم المرأة" قال جدي وصفع أبي على وجهه فجأة، تغيّر وجه أبي وحدق بغضب في وجه جدي، ثم أسرع إلى عصا فأس كانت خلف الباب، حملها ووقف بتحدّ قبالته، صرخت جدتي ولعنته ثم دفعت جدي خارج الغرفة وهي تلعن الشيطان وساعة الشر، وجدي يقول بغضب "روح الله يغضب عليك"، بينما احتضنتْ أمي أختي وفاء وضمتها إلى صدرها، وراحت تلعق جراحها المختلطة بالدموع.

تلك الليلة، شعرتُ أن طفولتي تحوّلت إلى عود ثقاب محروق.. أحسستُ بأني خليط من الأنقاض، جثة مختلطة بالدم والموت عادت عمياء من العالم الآخر.

بعد تلك الليلة عِشتُ سلسلة من المآسي.. كنت صغيرة ولم أعرف سبب عراكهما.. فرشتُ أوجاعي ورحت أنظر إلى أمي التي لم تكن أكثر من فزّاعة حقل في أرض مهجورة.. منسية في بيت أودع فيه سيده كل متعلّقاته المهملة، وانتهى بتسميتها بالكلبة، رغم أنها امرأة بسيطة، طيبة القلب، وكانت نظرة واحدة إلى وجهها كفيلة بأن يدرك المرء إلى أي مدى تعاني تلك المخلوقة التعسة من تعب الحياة وهمومها.. أحزان متصلة، ودموع لا تجف.

لم ينم والدي تلك الليلة، راح يضرب رأسه بالجدار، وينزع بأظافره كتلاً طينية، يفركها بين أصابعه ويلتهم الأجزاء الصغيرة منها.. انقلب كل شيء في البيت رأساً على عقب، وعرف قلبي الصغير للمرة الأولى معنى الخوف الحقيقي من سطوة الأب، ومن المستقبل الغامض الذي ينتظرني ويتربّص لحياتي.

صباح اليوم التالي، عاد والدي طبيب وكالة الغوث أثر صداع في رأسه، وتبيّن أن صفعة جدي مزّقت طبلة أذنه.. فأقسم أن يتوقف عن العمل معه، ومنع والدتي من التحدث معه أيضاً.

تغيّر والدي وأصبح ثائر الأعصاب، متهيج الأحاسيس، شديد التجهم والعبوس، كثير التفكير والسهو.. وكنت عند كل مساء أخاله يدخل، وبلا مقدمات يُشعل النيران في البيت.

الخوف من أبي صار هاجسي الوحيد في الليل والنهار.. مجرد رؤيته صار لها تأثير رهيب.

كان صلباً كالفولاذ، لم تزحزحه دموع أمي وضعفها، ولم يتراجع يوماً عن قرار اتخذه حتى لو كان خاطئاً.. اضطرت أمي للتسليم بالواقع.. وكثيراً ما أشعرتني أثناء غيابه عن البيت بحملها الثقيل، وهي تشغل رأسها بباقة من المواويل الحزينة، تحتضن أختي وفاء وتجلسني عند قدميها تذرف الدموع.. دائماً هي المذنبة، ودائماً والدي سيد الموقف، يصول ويجول، يخرج من البيت ويعود يبحث عن الأسباب الخفية وراء الأشياء التي نراها، ليتعارك مع أمي لأتفه الأسباب من جديد.

***

٣

كنا صغاراً نعيش في غور الأردن.. في بلدة الكرامة بالذات بدأت حكايات أبي مع أمي.. هناك تزوّجا، وأنجباني في الأغوار مع انطلاقة الثورة الفلسطينية.

في الأغوار وفي أيام الحر الشديد، ابتليت بنمو أظافر ومسامير لحمية في قدميّ منذ خطواتي الأولى.. وما زلت أذكر البيت الطيني الذي كنا نقيم فيه في بلدة الكرامة.. أذكر "الماتور" الذي يضخ المياه إلى البساتين، وجدّي يعيش مع أولاده يفلحون الأرض ويزرعونها قرب ضفة النهر الشرقية، وينقلون الخضار إلى أسواق عمان.

حكايتي وأخوتي حكاية الأسرة الفلسطينية المشتتة والمعدمة.. حكاية تناسلت مع الأجيال في زمن الغربة والقهر والتشرد.. أما حالة والدي فهي حالة الفلسطيني الضائع.. ترتيبه الرابع بين أخوته والثالث بين الأبناء الذكور بعد عمي صالح وعمي احمد.. تكبرهم جميعاً عمتي فاطمة التي تزوجت قبل سنوات ورحلت مع زوجها إلى عمان.. ولم تكن علاقة أعمامي مع جدي بأفضل من علاقة والدي معه.. كان جدي قاسياً مع أبنائه كما قالت جدتي لي ذات يوم، جاهد في سبيل تعليمهم، وتمنى حصولهم على الشهادات العليا، لكنهم خيّبوا أمله ولم يحب أحدهم العلم ولا التعليم، فأرغمهم على العمل معه في فلاحة الأرض.. ومع ذلك ظل عمي صالح يتحيّن الفرص للعمل في عمان بعد أن زارها أكثر من مرة أثناء بيع الخضار مع جدي، ولم يحب فلاحة الأرض، وما أن تزوج حتى رحل إلى عمان مع زوجته خلسة عن جدي، وتبعه عمي أحمد بعد ذلك بشهرين، ثم سافروا جميعاً

إلى المدينة المنورة في المملكة العربية السعودية للعمل هناك.. أما والدي فقد بقي مع جدي ومع عمي علي الذي يصغره بعدة سنوات.. وكثيراً ما كان جدي يصب جام غضبه عليهما بعد رحيل ولديه صالح وأحمد.. ووالدي يثأر لنفسه ويصب غضبه علينا، وكم تساءلتُ في قرار نفسي "ما الذي جنيناه حتى نؤذى ونُدمّر على هذا النحو!".

بدا لي أننا مشوهين من الداخل، وغير مؤهلين لحياة الاستقرار.. فقدنا الأمل والفرح قبل ألم المخاض.

بيتنا بجوار بيت جدي، في الضاحية الشمالية من بلدة الكرامة، يتكون من غرفتين وساحة كبيرة، يحيط به سور من الطوب المصنوع من الطين والقش، سقفه من القصب الذي يعلوه الطين أيضاً، كان قد تركه عمي صالح بعد رحيله.. وكثيراً ما كنت أرى في الظلام بعد أن يطفئ والدي المصباح أبو البنورة نمرة 5 أو سراج الزيت الذي يشعله لصيد الفراش وقتل الناموس.. كثيراً ما كنت أرى الديدان تخرج من عيدان القصب الموجود في سقف الغرفة، ولا أدري أكان ذلك حلماً أم حقيقة، لكني كنت أرى ديداناً تكبر، تهبط من وسط أعواد القصب لتأكلني.. أحس بديدان حقيقية تنهشني ونمل صغير يعضني.. ينمل جسمي، أحكّه بأظافري الطويلة، ولا أتوقف حتى يسيل الدم من تحت الجلد.

غيلان كانت تخرج من السقف كل ليلة، تربض على صدري.. وحكايات أمي تحفر باستمرار في مسامعي، حكايا تدور كرحى الطاحون ليلاً نهاراً ولا تتوقف، تترك في داخلي آثاراً هيكلية قديمة ذات أصداء، أسمع فيها حس الحشرات تنخر وتتقدم وتسري في دمي.

كثيراً ما كان والدي يتهرّب من العمل مع جدي، يغافله ويعود للبيت، يزرع القصب والذرة وبذور عباد الشمس في حاكورة الدار، ويربّي حماماً أبيض اللون وطيوراً لا أعرف لها أسماء، وعصافير صغيرة ملوّنة، حرّم علينا لمسها أو الاقتراب منها.. كان يعلّم العصافير الصغيرة التغريد والطيران، تحلّق عالياً ثم تعود لأقفاصها الحديدية من جديد بعد أن تعوّدت عليها، ولم تعد تطيق الابتعاد عنها، مثل أمي تماماً.. ودائماً كنت أرى كتلاً طينية أو حصى صغيرة في يد والدي، يتلاعب بها بين أصابعه، يفركها ويأكل حبيباتها الصغيرة.. قالت أمي بأنها ومنذ أن تعرفت عليه وهو يمارس هذه العادة، ولا تعرف كيف تأصّلت معه.. وكانت تربي الدجاج في البيت، وتزرع النعناع والريحان والورود ونباتات أخرى تقول إنها مكانس الجنة.

كنا ننام في غرفة واحدة، مفروشة بحصيرة من قش ملون عليها فرشات صغيرة، ووالدي ينام مع أمي في زاوية من الغرفة على فرشة أكبر.. وكثيراً ما كنت أسمعهما يتهامسان في الليل،

يضحكان مرة، ومرات كثيرة أسمع أمي تتأوه وتتوجع، وكأنها تبكي في الظلام.

الغرفة الثانية كانت صغيرة تحوي وابور كاز وطناجر وصحون وكاسات وملاعق وزير الماء، وبرميل من الصفيح لتسخين الماء للاستحمام.

في سقيفة جانبية من حوش الدار كان طابون جدتي المصنوع من الطين الأحمر والتبن.. وهو عبارة عن قبّة صغيرة مفتوحة من الأعلى، ومغطاة بقطعة من الحديد، وفي داخله حصى صغيرة تسمى "الرذف".. وكانت تضع عليه روث الحيوانات وتحرقه حتى تزول رائحته، ثم تزيل الرماد عن باب القبة بخشبة المقحار، وتفتح الباب لتضع في داخل الطابون العجين المرقوق فوق الرذف، وتغطيه ثانية حتى ينضج، ثم تعود بعد دقائق تفتحه وتقلع الخبز بيدها غير عابئة بالحرارة.. وفي مرات كثيرة كنت أراها تضع قطعة من عجين الذرة السميك أو الشعير في الرماد وتتركها حتى تجف، وحين تقلعها تنفض الرماد عنها، وتقسمها إلى قسمين، فتبدو مثل قالب فطيرة الحلوى، وتدعوها كراديش.. وكانت رائحة رغيف الخبز الساخن تشدني من على بعد، تعبق في أنفاسي، وتفوح في البيت مثل زجاجة عطر انسكبت فجأة على أرضية الغرفة.

وفي أيام البرد والشتاء، كان جدي يجمع الروث المحروق عن الطابون، ويضعه في موقد النار لنتدفأ عليه.

***

٤

منذ البداية لم أختر اسمي.. والدي هو الذي أسماني **"جهاد"**، ودفعني منذ طفولتي إلى الحياة في بساتين الأغوار كعامل مأجور.. كان يكره خلفة البنات كما قالت والدتي ذات يوم، ويتمنى أن يرزقه الله بولد يساعده على متاعب الحياة.. ويوم ولادتي اكفهر وجهه وتغير لونه، وتمنى لو أجهضت أمي قبل أن تلدني.. وهذا ما دفعه لتسميتي جهاد، ومعاملتي كولد بدل البنت.

أحلامي أيضاً، لم تكن أفضل حالاً من أحلام أمي المعجونة بالكوابيس المتلاحقة، ووالدي يصطحبني معه إلى بستان جدي في الشونة الشمالية.. وفي الليل يضعني فوق سطح عريش القصب، ويتمنطق بطلقات الخرتوش وببندقية الصيد ذات الماسورتين، ويدور مع كلاب الصيد لمطاردة الخنازير البرية والثعالب التي تعبث في البساتين وتخرب البطيخ.. كنت أسمع أصوات الطلقات

من بعيد وأرى عيون الوحوش بوضوح تلمع وتومض كمصابيح صغيرة متباعدة، وأسمع أصواتها تجوح، تقترب أحياناً من عريش القصب وتحك أجسامها فيه، كنت أصرخ، أنادي أبي وأموت رعباً كل ليلة أكثر من مائة مرة، وأبي لا يفتأ يقترب ويقول "لا تخافي، أنا هنا جانب العريش".. أما عمي علي فكان ينصب الفخاخ للثعالب ويطلق النار على الخنازير.. وتبيّن في صباح أحد الأيام أنه أطلق النار على ضبع وقتله، وحين جاء جدي جره مع والدي بعيداً ورماه عند حافة النهر.. أما جدي فكان يصطاد النيص والثعالب ويجعل من لحومها ولائم للمزارعين.. وفي النهار يدور والدي مع عمي في البساتين بعد أن يجمعا الثمار مع جدي، يطاردان الطيور ويقومان بإصلاح هياكل خيال المآته المتناثرة بعد أن عصفت بها الرياح في الليل.

حتى هديل حمام أبي كان يزعجني.. طيوره، حمامه وعصافيره كانت تلاحقني في الليل مع ديدان القصب.. وحوش الليل وطيور النهار مع طيور أبي البيضاء وعصافيره الملونة تحوّلت جميعها في ذاكرتي إلى طيور سوداء، راحت تحلّق في ظلام الليل حولي، وتحوم فوق رأسي.. أنا لم أكن موجودة في تلك الأحلام.. كنت أراقب الطيور وأنظر، لم أكن أرى نفسي في المنام، كنت أرى الخرائب التي تقطنها الطيور.. تتكرر الكوابيس وتخرج الطيور من القصب، تضربني بأجنحتها، تنقض على

وجهي، تنقر أذنيّ وعينيّ، تصطدم بجسدي وتجرحني، أزحف، أحاول الهروب، أشعر أن قدميّ مشلولتان، أزحف على بطني، أزحف على ساقيّ، لا أستطيع الحراك، ألهث، أصرخ، أحاول الهرب.. وحين أستيقظ أحس بخدر في جسدي وتنمل في قدميّ.. أشعر أني كنت أزحف إلى نهايتي على مسامير لأميال طويلة قبل أن أتوقف.

أعوام طويلة مرت وأنا أعيش هذه الأحلام المسجونة في رأسي وداخل وسادتي المحشوة بالتبن.. كنت أمضي من شهقة إلى أخرى، أتفكّك مثل آثار عفا عليها الزمن مفرطة ومدمّرة، وفي ليال كثيرة كنت أموت رعباً قبل النوم.

ذات نهار حارق، تربّص أحد القطط بطيور أبي أثناء غيابه عن البيت وانشغال أمي في المطبخ.. هجم القط على أحد العصافير، قلب القفص والتهم العصفور دفعة واحدة.. راحت أمي تطارد القط وتعنّفني.. أشعرتني بأن أبي سيقلب البيت رأساً على عقب إذا علم بالأمر.. ومع أن أمي تكتّمت وأخفت خبر القط والعصفور، إلا أن خوفها دفع أبي لتفقد طيوره.. عنّف والدتي في البداية وقال إنها امرأة مهملة، تدور من بيت إلى بيت، وتترك بيتها على غاربه.. ارتعبت أختي وفاء وبكت فطلب من أمي أن تسكتها.. لكن وفاء لم تصمت.. فجأة تناول بشكيراً وراح يحشوه

في فيها الصغير.. ولا أدري كيف قفزتُ من مكاني وعضضته في يده حين اعتقدتُ أنه ينوي خنقها.. صفعني على وجهي ودفعني بعيداً عنه وأخذ يغطي وجه أختي بالبشكير ويضغط على فيها محاولاً إسكاتها.. اندفعت أمي وخطفتها من بين يديه واحتضنتها، زمجر أبي وصرخ على أمي ثم راح يضربها بكل قوته متذرّعاً بإهمالها لممتلكاته.. ولشهر كامل سجننا في البيت.

كثيراً ما حاولت الخروج من دوامة الخوف.. الخوف من والدي صار بحراً من الرمال المتحرّكة أغرق فيها دائماً.. وأمي تتكوّر في زاوية البيت تنوح، تمتص الجدران صوتها، تنفل شعرها وتقطّعه.. تتكّئ على الجمر وتقوم لتعد وجبات الطعام، وكانت وجباتنا الإفطار والغداء والعشاء طبيخ العدس عقاباً لنا.. آه كم صرت أكره العدس بعد تلك الأيام.

في الأيام التالية تربّص والدي لقط وقتله بحجر في رأسه.. وفيما بعد تفنّن في قتل القطط.

ذات مساء ألقى القبض على قط، فتح فمه وسكب في جوفه سماً.. ركض القط زاحفاً على بطنه يجر قدميه الخلفيتين على الأرض، وأبي يقهقه عالياً.

بعد ثلاثة أيام أمسك بقط آخر سمين.. أتى بحبل وربطه من عنقه، وحاول شنقه بين أعواد ثلاث من القصب غرسها في

الأرض وربطها من الأعلى على شكل هرم، وحتى مساء اليوم التالي لم يمت القط.. نادى أمي وطلب منها التعرف على القط إذا كان هو الذي افترس العصفور!.. فأجابت بأن كل القطط متشابهة.. وعندما ناداني للتعرف عليه، خرست خوفاً مما شاهدته ولم أجب.

***

٥

تلك اللحظة تناول أبي مقصاً وشقّ بطن القط، راح القط يتلوّى ويموء مواء غريباً، ووالدي يبحث عن بقايا عظام أو ريش في أمعائه.

في ذات يوم حار شاهدته يقلب الحجارة المحيطة بالبيت، ينقّب تحتها عن عقارب.. يومها جمع أكثر من مائة عقرب في صفيحة.. كانت ألوانها صفراء وسوداء بأذناب معقوفة تثير الرعب والاشمئزاز، وتقشعر لها الأبدان.

عند المساء أحضر قطعة لحم صغيرة، جعلها طعماً في فخٍ ذي أسنان حادة، كان جدي يستعمله لصيد الثعالب التي تعبث في البساتين، وراح يتربّص لقط جديد.. كان القط يتلوى من الألم ووالدي يمسكه من رقبته ويلقي به في صفيحة العقارب، ثم يغلقها

عليه بإحكام.. ولساعة كاملة راح القط يتمرّغ في الصفيحة، يموء ويضربها برأسه وأقدامه، قبل أن يصب والدي كيروسين داخل الصفيحة ويشعل فيها النار.. كنت أسمع العقارب تفرقع مثل حبات ذرة البوشار داخل الصفيحة، ووالدي يتأمل المنظر منبسط الأسارير.

***

لا أدري لِمَ أحتفظ في ثقوب ذاكرتي بهذه الأشياء الصغيرة والتافهة، ولا أدري لماذا أتذكّر كل هذه الأشياء في هذا الوقت بالذات!.. في أحلى الأوقات كنت أشعر أني أصعد جبلاً وعراً ولا أعرف طريقاً لمنحدراته.

أبي متوسط القامة، أسمر البشرة، حاجباه كثيفان كغمدي سيفين، وعيناه بلون قطرتي عسل.

في المساءآت الحزينة يمخر أبي في عباب شراييني، ولا يتوقف حتى يدوس كل ذرة في جسدي.. نداء بعيد يأتيني من العدم.

رجل مُحبط هالك، عابر في الأزمنة العربية الرديئة.. أزمته أزمة الأجيال المشردة التي عاشت بلا وطن.. إنسان هامشي ولاجئ بلا أمل.. كان يتصرف على هواه، يشعر أنه محبط دائماً، ولا أمل له في تحقيق هدف.. وحين يعود إلى صباه يكفهر الجو

ويتساقط مطر أسود يغرقه بوحول الأغوار والبساتين والفلاحة ومطاردة الثعالب والخنازير وصيد الأرانب البرية والطيور.. كانت السماء صافية زرقاء لا متناهية، وكان والدي في السابعة من عمره في ذلك الأصيل الصيفي.. رأى شجرة صنوبر وقد جثمت بومة على أحد أغصانها المنخفضة، بدت وكأنها تغط في نوم عميق، وقف وراح يتربّص لها دون أن يبدي أية حركة.. تذكّر ما قاله والده "إن البوم يرتاح في النهار كي يتسنى له الصيد خلال الليل".. همس في داخله "ما أعجبه من طائر صغير حين يصبح أليفاً!".. أعجبته الفكرة، حبذا لو يستطيع أن يقترب من البومة دون أن تستيقظ ويلتقطها، اقترب منها حتى أمكنه أن يقبض عليها من قائمتيها، بيد أن البومة استيقظت فجأة وأظهرت ردة فعل لم يسبق له أن رآها، أخذت تضرب بجناحيها إضافة إلى هياجها وصراخها اللذين نمّا عن خوف، وشرعت تقاوم قبضة والدي.. وقف مذعوراً ومرتبكاً لا يعرف ماذا يفعل.. كان من العسير تخيّل ما حدث بعد ذلك وكيف حدث، رمى البومة أرضاً وأخذ يدوسها بقوة حتى نفقت، ولما انتهى كل شيء، لم يصدّق ما حدث، وراح يحدّق إلى كومة الريش البرونزي المهشّم والدم السائل وولّى هارباً، ركض بأقصى سرعة بعيداً عن الشجرة، غاب بين أشجار الصنوبر والسرو، لكنه عاد صباح اليوم التالي ليدفن البومة التي أرادها أن تكون أليفة، فلم يجد منها إلا بقايا

ريشها المتناثر بفعل الرياح، ونمل أبيض صغير يحط على بقايا عظامها من كل جانب.. ولأشهر تلت ظلّت البومة تزوره في أحلامه.. كان والدي يروي الحادثة لنا لأول مرة، ويتذكّر ذلك المشهد برعب الأطفال.. وفي محاولة للتكفير عن عمل طائش لصبي حزين في السابعة من عمره، سعى لامتلاك طيور الغابة وإطعامها وتربيتها.

قليلة هي المرات التي حدّثنا فيها أبي عن حياته وذكرياته، وكثيرة هي المرات التي شاهدته فيها على حقيقته.. أبي كان مثل قائد عسكري خرج لتوه من معركة خاسرة، وصبّ جام غضبه على أفراد كتيبته، وكانت عائلته ثمرة الهزيمة.. الهزيمة لم تكن في عائلتنا فقط، كانت الهزيمة تخيّم على عيون العالم العربي أيضاً، وتنشر ظلالها بيأس واضح بعد نكسة حزيران.. لكن الأغوار بدت بوضع مختلف مع وجود الفدائيين الذين لم يعترفوا بالهزائم العربية ولا بالنكسة الجديدة.. راحوا يندفعون للموت ويقاتلون، الأرض الخضراء تغيّرت وصارت تزرع بالقنابل والألغام بدل الخضار والبساتين والحمضيات وأشجار الموز والبرتقال، مما اضطر جدي للهجرة ثانية والرحيل إلى عمان، بعد أن التحق عمي علي بالمقاتلين.. أما أبي فقد ظلّ متفرّغاً لطيوره ومشاكله العائلية وإنجاب الأولاد.

كثيراً ما كان يزورنا عمي علي، وينام عندنا لعدة أيام، يشدّني لباسه المموّه، ويستهويني سلاحه الذي يحمله دائماً.. وحين يسنده على الجدار، يشدني من ملابسي ويضربني برقة وأنا أحاول العبث به، ويقول بأنني صغيرة، "والكلاشنكوف أطول من قامتك"، ويغيب عمي، تنقطع أخباره لفترات طويلة، ثم يظهر بيننا ثانية مثل نور الفجر، ويقول إنه كان يقود مجموعة فدائية في أعماق الضفة الغربية غربي النهر.

٦

قبل معركة الكرامة بثلاثة أشهر تقريباً ولد أخي محمود، كانت الأحداث قد تسارعت، وتواصلت الاشتباكات على مدار الساعة.

صحوت على صوت المدافع تهز أرجاء ومحيط منطقة الكرامة.. بدأ القصف بعد منتصف الليل.. أبي لم يكن موجوداً معنا تلك الليلة.. احتضنتنا أمي بين ذراعيها كدجاجة تحتضن فراخها وغادرنا البيت.. النساء والأطفال والشيوخ هجروا بيوتهم أيضاً بناء على أوامر المقاتلين، ولا أدري كيف وصلنا ذلك البيت المحاط بسياج من الأشجار خارج حدود بلدة الكرامة.. شاهدت النساء يحملن السلاح لأول مرة تلك الليلة، والمقاتلون ينغلون في الشوارع والطرقات مثل النمل.

تلك الليلة تغيّر لون السماء إلى اللون البني الغامق، وسرت شائعة تقول أن "المجنزرات" الإسرائيلية اجتازت وحول الشريعة نحو الضفة الشرقية تحت غطاء كثيف من القصف الجوي والأرضي، ولم يتوقف هدير المدافع ولا طلقات الرشاشات طوال ذلك اليوم.. توقفت دبابتان بالقرب منا، وراحتا تطلقان قذائفهما بجنون.. كنت أرقبهما بحذر وخوف.. فجأة دوى انفجار هائل وطار الجزء العلوي من إحدى الدبابات واشتعلت النار فيها.. قفز الجنود من الدبابة الثانية التي بدأت تحترق هي الأخرى.. وطلقات المقاتلين تلاحقهم وهم يصرخون.. للمرة الأولى أرى جنود اليهود يصرخون ويهربون ويُقتلون.. كانوا يتمرغون في التراب ويصرخون.. أسراب من الطائرات كانت تعبر السماء أيضاً.. تحوّل لون السماء من اللون الأزرق الصافي عند الظهيرة إلى اللون البني الغامق.. الرمال أيضاً ملأت أرض وسماء الكرامة.. وتواردت الأخبار أن الجيش الأردني تلاحم مع المقاتلين وصدوا هجمة الأعداء.. ولا أعرف كيف انتهت المعركة بهذه السرعة، لكني شاهدت الكثير من أفراد الجيش الأردني يقفون على الدبابات الإسرائيلية والدخان ما زال يتصاعد منها، ويلتقطون الصور التذكارية.

لم يظهر أبي منذ بداية المعركة، خمّنت أمي أنه مع المقاتلين فلم تسأل عنه.. كان همها الوحيد أن تحافظ علينا، وعندما عادت بنا

إلى البيت مساء اليوم التالي، كانت جدرانه قد تهدمت ولم يبق إلا أثره.. معظم بيوت الكرامة الطينية سُحقت تحت جنازير الدبابات وقصف المدافع.. وقفت أمي مذهولة.. ظهر أبي بيننا فجأة، كان فرحاً وهو يحمل بندقية سريعة الطلقات، قال أنه قتل جندياً يهودياً واستولى على سلاحه، ثم حمل أخي محمود وراح يقفز ويرقص بيننا ويقول "انتصرنا".. أمي أخذت تنظر بفرح وأبي يحمل محمود، خيّل لها أنه يحمله للمرة الأولى في حياته ويضحك.. البيت لم يكن شيئاً يُذكر بالنسبة لضحكة أبي وانتصار المقاتلين في المعركة تلك اللحظة.. "الله بعوّض" قال والدي، وأضاف "المهم أننا انتصرنا"، وأخذ يضمنا واحداً واحداً ويقبّلنا، ابتسم لأمي وضمها بين ذراعيه أيضاً.. ورأيتُ دموع الفرح تقفز من عينيه، ثم راح يبحث عن فراش تحت الأنقاض طالباً منا النوم والراحة في العراء تلك الليلة حتى يتدبّر الأمر.

صباح اليوم التالي حمل والدي ما استطاع إنقاذه من تحت أنقاض البيت، وما تبقّى من طيوره التي لم تمت في أقفاصها، ورحل بنا إلى عمان.. تركنا الكرامة وأيام الطفولة وبيتنا المهدم وعمّي.. ولم نحمل معنا سوى الذكريات.

***

٧

في عمان لفح هوى تغيير المكان حياتنا.. أقمنا لعدة أيام في بيت جدي.. وشعرت للمرة الأولى بسعادة لا متناهية وأنا أرافق والدتي إلى سوق الخضار لشراء بعض الحاجيات.. بدت الحياة أجمل والجيران يرحبون بنا ويزورون بيتنا، لكن الهدوء الذي لم نتعوّد عليه من قبل لم يدم إلا لأسابيع قليلة، عاد والدي بعد ذلك يطوّق أعناقنا بتصرفاته مثل سور مقبرة.. استأجر بيتاً صغيراً قريباً من بيت جدي في مخيم الوحدات، وأغلق علينا الباب.

وفي اليوم الذي أُحرق فيه المسجد الأقصى، ولد أخي صابر بعاهة مستديمة، حيث تبين أن له ساقاً أطول من الأخرى، ولم يفلح الأطباء في معالجته، مما جعله يعرج طوال حياته.. أضافت عاهة أخي هماً جديداً إلى هموم أبي وأمي.. نغم جديد من الكآبة سكن أعماق بيتنا، وأحال حياتنا إلى صحراء خالية من كل حياة.

في الأشهر التالية، راح والدي يغيب عن البيت طيلة النهار.. كنت وشقيقتي وفاء وأخي محمود نلهو أثناء غيابه وتغمر الفرحة قلوبنا.. وعندما يعود، كنت أنزوي معهما في زاوية الغرفة، أو

ننـزلق فـي الفراش ونتظـاهر بـالنوم، بينمـا يختلـي أبـي بـأمي فـي الغرفة الثانية ويتشاجران لأتفه الأسباب.

المشاجرات لم تكن تدور في بيتنا فحسب، فقد دار صدام مسلح بين أخوة السلاح أيضـاً، انتهى بخروج الفدائيين من الأراضـي الأردنية إلى سوريا ولبنان، ورحل عمي علي مع من رحل من المقاتلين إلى الجنوب اللبناني، دون أن نراه أو نعرف عنه شيئاً.

ذات مساء عاد أبي يتأوه ويتوكأ على عصاً.. لم تنم والدتي تلك الليلـة، بقيـت سـاهرة عنـد رأسـه، وعنـد الصـباح رافقتـه إلـى المستشفى، وعندما عادت، ضمتنا إلى صدرها وقالت إنه نـام فـي مستشفى الأشرفية لإجراء عملية ديسك في ظهره.

بعد أكثر من أسبوع، عاد والدي يتوكأ على عصاه ثانية بعد أن أجريت له العملية، ولثلاثة أشـهر تاليـة بقـي سـجين البيـت عـاجزاً عن أي عمل.

بدت حياتنا عادية ظاهرياً، لكن توازن العائلة اختلّ وأنكسر من الداخل، ولم يعد أبي قادراً على العمل وتلبية حاجاتنا.. مرّ كل منا بتجربة الوحدة المطلقة التي لم يتمكن من تجاوزها إلا بعد سنوات طويلة.. باع أبي طيوره لعجزه عن إطعامها، وصرف ثمنها على علاجه.. أما والدتي فقد عملت فـي خياطـة الملابس.. كنـت أرى نساء كثيرات يدخلن ويخرجن ويدفعن النقود لها.. تحسنت أحوالنا الاقتصادية، وركن والدي لهدوء لم نعهده فيه من قبل.

ذات صباح، وبعد أن استردّ والدي عافيته، أحضر عاملاً هدم جدار المنزل الخارجي، وفتح في البيت مطعماً صغيراً.. صارت رائحة الفلافل تغرق بيتنا.. وراح أخي محمود الذي تجاوز عامه السادس، يساعد والدي في المطعم بعد عودته من المدرسة.. ومع أن والدي كان مشغولاً دائماً، إلا أنه كان يرقب النساء اللاتي يأتين عند أمي.. يتمعّن في وجوههن ويتأمل أجسادهن وأردافهن عن كثب.

ذات ليلة، وبينما كان والدي مشغولاً في عمله، ووالدتي مشغولة بتفصيل ثوب لإحدى الجارات، تناول أخي صابر الذي لم يتجاوز عامه الثالث بعد، تناول مقصاً وراح يعبث به بين يديه، ثم راح يصرخ والدماء تسيل من عينه وتملأ وجهه، ركض والدي وحمل أخي إلى المستشفى.. وعندما عاد قال أن صابر خسر عينه اليمنى وصار أعرج وأعور، وثار.. حطّم "ماكنة" الخياطة، لطم أمي، هشّم وجهها وعض أذنها وكاد يقطعها، وأقسم أن يخلع عينها اليمنى، ونالنا من العقاب والضرب ما نالها، لكنه لم يخلع عين أمي، وبقي يتوعدها لأيام طويلة.

لشهر كامل لم نغادر حجرة البيت.. المرة الوحيدة التي غادرناها يوم أن شبّ حريق هائل داخل البيت.. اندفعت النيران من أسطوانة الغاز مثل لهيب قنبلة وأتت على كل محتويات البيت، تزاحم الجيران في محاولة لإطفاء الحريق ومساعدة أبي الذي احترقت يداه وهو يحاول إغلاق أسطوانة الغاز.. انتشل

أحدهم أخي صابر من بين أعمدة الدخان وخرج، قفزتُ مع أخي محمود وأختي وفاء من النافذة المطلة على حديقة البيت، بقيت أمي في الداخل وسط الدخان واللهب، سمعت صوتها تصرخ، تستغيث وتنادينا، ونحن نصرخ من الخارج، لكنها لم تسمعنا.. بعد دقائق خرج أحد أصحاب أبي يلف والدتي بحرام ويحملها بين ذراعيه بعد أن احترق جزء من ثيابها.. كانت تصرخ والرجل يهدّئ من روعها ويقول "أولادك بخير، احمدي الله وصلي على النبي يا أم محمود.. إنهم خارج البيت".. ركضنا إليها، ضمتنا بين ذراعيها، وراحت تبكي بمرارة وألم.

مر يومان بعد تلك الحادثة التي أتت على كل محتويات مطعم أبي الصغير وجزء من أثاث البيت، لم يتحدث والدي خلالها مع والدتي، وفي مساء اليوم الثالث ثارت ثائرته.. اتهم أمي بشرفها متذرّعاً أنها سمحت لرجل غريب أن يحملها بين ذراعيه أثناء الحريق.. صمتت والدتي للحظات، ولم تدافع عن نفسها، وعندما استفزها ثانية قالت:

"استغفر الله يا رجل، واحمد الله أن أولادك بخير".

لساعة كاملة ظل والدي واجماً ولم ينطق بكلمة واحدة، وبدورها تناست الأمر وأحضرت له العشاء، بدا متضايقاً ولم يذق الطعام، وطلب منها أن تأكل منه قبل أن يتذوّقه، وأخذ يراقبها

وهي تلتهمه بشهية زائدة وتطعمنا منه.. ولم يخف ما في سريرته عندما صرّح إنه اعتقد أنها وضعت في الطعام سماً للخلاص منه.

***

٨

دونما أسباب مفهومة وواضحة لغيره، هجر والدي والدتي وانزوى في غرفته وحيداً.. بدا صامتاً طوال وقته واجماً، وكأنه يحمل هموماً لا طاقة له عليها.. زاره بعض أصحابه وراحوا يلعبون الورق.. سمعتهم يتحدثون أثناء اللعب عن النساء وعن بطولاتهم الليلية.. وعندما غمز أحدهم عن خيانة إحدى الزوجات لزوجها، وأن الزوج آخر من يعلم، مضيفاً "ويا غافل لك الله".. ثارت ثائرة أبي، وهجم عليه، أوسعه ضرباً وطرده من البيت مع بقية رفاقه، وأقسم أن لا يُدخل أحدهم البيت.

بعد تلك الليلة، تزايدت شكوك أبي بأمي.. راح ينام وحده، يدخل غرفته ويغلق الباب بالمزلاج من الداخل.. ضيقه اختلف

عن الضيق السابق المبهم الذي اعتاده سابقاً.. الحالة الاقتصادية التي يعاني منها لعبت دورها تلك الأيام.. أما مصدر عذابه فكانت الشكوك التي تحوم حول أمي، وإذا كنا نحن من صلبه أم لا!!.. وكان لا يتورع أن يقول ما يدور في ذهنه، ينعتها بالزانية بلا خجل، ويتمنى يوم الخلاص منها.. وأمي تنزوي بصمت، ولا تجد كلمة تدافع فيها عن نفسها.

في الليل كان يداهم أبي خوف أصم.. هذا الرجل القوي الذي كنا نخافه جميعاً، كان يغلق الباب على نفسه ليلاً، يشعر أن بيته من زجاج، وإن كل الناس يتفرجون عليه.. كنت أشعر بذلك وأنا أسمعه بوضوح، يتأوه ويتألم، ويلعن الساعة التي تزوج فيها، ونحن ننزلق ليلاً في فراش أمي.. تحكي لنا حكايات القهر، تذرف الدموع، وتبتدع أحلاماً.

مع مرور الأيام راحت صورة والدي تتلاشى من ذاكرتي، لتحل محلها صورة رجل مجهول شكّاك وظالم.

تلك الفترة كان الجميع يضربون أولادهم، وكان ذلك جزءاً من التربية كما يقولون.. أما والدي، فكان يقتلنا، ويقتلع الحب من صدورنا.. كلنا فقدنا الحب، وفقدنا القدرة على العطاء.. والدي عاش في دائرة أحلام وشكوك مع نفسه، ولا أدري كيف أو متى نبتت في رأسه هذه الأفكار.. تغير جسده وهزل.. روحه أيضاً

تغيرت وغادرت المكان.. وكثيراً ما كنت أرغب في مواجهته.. مرات عديدة اندفعتُ لأقول له "أنت ظلمت روحك وظلمتنا معك.. هذه المرأة المسكينة ربحت الآخرة، أما أنت فقد خسرت الدنيا والآخرة.. أنت لا تستحق أمي يا أبي".. لكني أتراجع في اللحظة الأخيرة.. أرتجف ولا أنبس ببنت شفة.

في ليلة تالية، وبلا مقدمات أخذ والدي يتألم، يلهث ويضرب الجدران والأرض، يقوم إلى الحمّام ويفرغ كل ما في أحشائه.. يميل رأسه ويضع يده على خاصرته وبطنه كمن يشد أمعاءه كي لا تسقط على الأرض، ويصرخ كعاجز يشكو من آلام لا يدركها، معلاً أن أمي سبب كل أمراضه.

دفعته أمي لمراجعة الطبيب، وعندما أجرى الفحوصات اللازمة، تبيّن أن التهاباً أصاب كليته اليمنى أثر تراكم مواد رملية وحصى صغيرة، ويجب استئصالها.

لم تقف أمي مكتوفة الأيدي حيال أمر أبي.. تناست تصرفاته معها وأحضرت آلة خياطة من جارتها، وراحت تعمل طيلة الليل والنهار.. باعت أيضاً السوار الذهبي الوحيد الذي يسوّر معصمها، وأدخلت والدي المستشفى.

في المستشفى وبعد استئصال الكلية، مرّ أبي بتجربة حاسمة.. فقد ملك فرصة التفكير بمستقبله بعيداً عن أسرته.. بدا مرهف

الحواس، نظر إلى وجهي بعينين حائرتين، أجلسني جانبه، وراح ينتفض في صمته السريري، ومع ذلك لم يكن يبدو عليه أنه كسير الفؤاد، ولم يكن يريدني أن أرثي لحاله، ولو أن ذلك بالفعل هو ما شعرت به.. وعندما أحضرتْ الممرضة وجبة الطعام، لم يأكل وقال "إن للطعام طعم الرمل في فمي".

شخّص الطبيب حالته.. أعطاه مضادات حيوية ومنشطات لفتح الشهية، لكن جرح العملية لم يندمل، وراح دمه يتسرب من الجرح مثل نبع من الألم.

في المستشفى وأثناء عملية أبي، عرفت أن جدي كان يعالج في نفس المستشفى أثر حصر بول وتضخم بروستات لكبر سنه، ولم يكن أحدهما يعلم بوجود الآخر.. وعندما عرف والدي، قام بزيارة جدي لأكثر من نصف ساعة.. وقد عرفتُ من جدي بعد أن خرج من المستشفى أن والدي سرّب له معلومات تفيد أنه يعاني من المرض الخبيث لا من تضخّم البروستات وحصر البول، وذكّره بالصفعة التي صفعه إياها في الكرامة، قائلاً بأن علله بدأت بعد تلك الصفعة التي خرقت طبلة أذنه، وجعلته يسمع نصف ما يقال.. وحتى عام قادم لازم جدي الفراش ولم يتحدث مع أحد.

كان أبي غارقاً في تفكيره.. شعرتُ أنه مثل فقاعة هوائية طافية في الفراغ، ومع ذلك لم يتوقف عن التحديق في

الممرضات، وتأمّل وجوههن وأردافهن، وكان يقضي جل وقته في البحث عن امرأة أجمل من أمي.

فيما بعد، وبعد أن استرد عافيته تماماً، قال لأمي صراحة إنه سيتزوج غيرها.. لم تأبه أمي، وطلبت منه الاستعجال غير عابئة كي تتفرغ لتربية أولادها.. قالت إنها على استعداد للعمل خادمة لتربيتهم أحسن تربية.

دار بينهما مشادة كلامية طويلة تلك الليلة، تبادلا كلمات جارحة كحجارة الصوان.. قال لها بتهكّم "أنتِ تتعجلين الطلاق لتتزوجين غيري، لا لتربية الأولاد".. كان الاثنان يتخاطبان بكراهية وعدوانية لا يمكن أن يفرزها شيء من الحب.. انتهت المشادة الكلامية بعراك يدوي وصفعات على وجه أمي.. دفعته بيديها بعيداً، وركضت باتجاهنا في زاوية الغرفة.. احتمت بين أجسادنا الضعيفة تولول وتلطم وجهها، وأبي يلاحقها في كل اتجاه، وكل صفعاته تسقط على وجهها، وتصيبها كضربات ملاكم جبار.

ما زلت أذكر أمي تلك الليلة جيداً.. كانت تجوح كذئبة جريحة.. شاحبة الوجه وعيناها مسافرتان نحو البعيد.. نظرات شاردة محدّقة في الفراغ.. انعزلت في غرفة الخياطة بعد أن انتهت من تنظيف المائدة وغسل الصحون وترتيب البيت، رأيتها مشدودة على مقعد آلة الخياطة، وقد أحاطت وجهها بيديها تبكي،

وكأني لم أرها تبكي من قبل، شعرتُ بعجزي عن أداء أية مساعدة.. أدركتُ مدى تألمها والإرهاق الذي تملّكها نتيجة كبتها العواطف القوية التي قمعها أبي، دنوتُ منها، طوّقتها بذراعيّ، أسندتْ رأسها إلى كتفي وانفجرت بالبكاء، تمسّكتُ بها جيداً ولم أحاول الكلام، وفي تلك اللحظة شعرتُ بالعواطف المتأججة في صدرها، وفهمت للمرة الأولى مدى ضعفها، شعرتُ بألمها، وأحسستُ بألمي وأنا أنشد الراحة بين ذراعيها.. لم يكن لها أحد في الحياة غيرنا.. قالت "أنتم كسرتم ظهري، ولولاكم لتركت البيت منذ سنوات".. وأضافت أنها لم تشعر بسعادة منذ ولادتها عام الهجرة من فلسطين.. فقد توفيت والدتها بعد وضعها مباشرة، واستشهد والدها في نفس العام وهو يدافع عن الوطن.. أما شقيقها الوحيد الذي يكبرها بعدة أعوام، فقد هاجر بعد زواجها من أبي إلى أمريكا.. تفرغ لأعماله، ولم تعد تعرف عنه شيئاً.

ما زلت أذكر أمي وهي تستيقظ مع خيوط الفجر.. تبدأ بإعداد مراسم الطاعة اليومية، وشخير أبي يزلزل جدران الغرفة الثانية، وعندما تنتهي من إعداد وجبة الإفطار، تدق على باب غرفته بإذلال لتوقظه.. وحين يخرج من البيت يصفع الباب خلفه، وكثيراً ما كان يغلقه علينا من الخارج، ويعود في المساء متأبطاً غضبه، ليصبّه علينا من جديد.

كان ذلك منذ زمن مضى، لكنه مازال يرزح في ذاكرتي منذ الطفولة.. تلك الذكريات من الصعب تتبعها، فهي تتراءى لي غامضة من خلال غشاوة، لكنها في خيالي، أحداث لا تنسى أبداً

***

ذات مساء، عاد والدي والابتسامة تملأ وجهه عاقداً يديه وراء ظهره.. وقفتُ وأخوتي مثل تلاميذ صغار دخل المدرس على فصلهم فجأة.. تفحّص وجوهنا ثم نظر لأمي وقال "خمّني ماذا أخبئ لك من أخبار؟!".. صمتت، ورسمت ابتسامه صفراء على شفتيها.. كظمتْ غيظاً وتمتمت "ما أحضر الغراب لأمه".. أضاف "سأتزوج، الأسبوع القادم أنتِ معزومة على عرسي".

لم تصدّق أمي، واعتقدت أن هذا الكلام من باب الإغاظة فقط.. وعندما تأكّد لها الخبر، فغرت فاها وانكمشت على نفسها.. علامات من الدهشة ارتسمت على وجهها.. نزعت منديلها عن رأسها، ضربت رأسها وصدرها بيديها، جلست وكوّرت جسدها النحيل على نفسه، وبدت صغيرة وضعيفة ويائسة.

في ذاكرتي، ما زلت أرى والدي يجر والدتي من شعرها ويمسح بجسدها أرضية الغرفة.. تتمرغ كالحيوان الذبيح.. تمزّق التشنجات وجهها، يعتصر الألم جسدها.. تهزّ كتفيها باستسلام وتزمّ شفتيها.. ينساب الحزن مع الدم في أنحاء جسدها وأوصالها، ويسمّرها على أرضية الغرفة.

بعد أكثر من شهر على زواج أبي، عاد إلى البيت وقال لأمي بأنها في عداد المطلقات، وعليها أن تتدبّر أمرها.

أيام قليلة انقضت، سافر بعدها إلى دولة خليجية مع زوجته الجديدة، مخلّفاً لنا الدمار والفراغ.

***

٩

طالت أشهر الغيبة.. لم نتلقّ الدعم المادي من والدي كما وعد قبل سفره.. تركنا نقضم أظفارنا وأصابعنا في متاهة الضياع، نسي أن له زوجة وأولاداً في الأردن يتضوّرون جوعاً، وغاب عن أعيننا.

جدي كان شجرة البلوط التي احتمينا بظلها، وجدتي شجرة السنديان التي أغرقتنا بحبها، وحاولت أن تعوّضنا عما افتقدناه بعد رحيل أبي.

تدبّرت أمي أمرها، ولم تنتظر عودة أبي أو صدقته.. ابتاعت ماكنة خياطة مستعملة وعادت للعمل من جديد.

غياب والدي جعلنا نكبر على عجل، وعلّمنا الفقر الصمت والاحتفاظ بتساؤلاتنا في أعماقنا فقط.. متعبون، مثقلون بهموم الحياة اليومية المعقّدة التي تحتاج دائماً إلى وساطة لحل تفاصيلها العادية.. كان همّنا أن نحافظ على قوت يومنا، نحافظ على أنفاسنا الهابطة والصاعدة من أجساد غدت بلا أرواح حقيقية.

سنوات عجاف مرت علينا، وجدنا أنفسنا تائهين.. تحوّلنا مع مرور الأيام إلى قبيلة من النمل تبحث عن قوتها اليومي، وجُحر تختبئ فيه لا أكثر.

أخي محمود تجاوز عمره الثانية عشر، وصار بائع أكاذيب، لكن تفكيره سبق عمره بسنوات، ومع أنه تابع دراسته الابتدائية مع وفاء وصابر في مدارس وكالة الغوث، كما تابعتُ أنا دراستي الإعدادية، إلا أنه لم يحب المدرسة، وصار يمتلك جسماً قوياً، وضخامة تفوق سنّه الطبيعي.

أنا أحببت المدرسة والتعليم أيضاً، وكنت متفوقة في دروسي بعكس أخي محمود.. كانت الأخريات يسردن مغامراتهن الحقيقية لا الوهمية، ولم يكن لدي سوى أحلامي ورغبات تافهة.. كنت أستمع لهن، أضحك معهن وأحمرّ خجلاً أحياناً عندما يتحدثن ببعض الدقة عن أجسادهن وأجساد غيرهن من الفتيات.. لم يكن

للسعادة وجود في بيتنا، ونظرات الأقارب تقزّمني، وتغوص في أفكاري وأعماقي.

في الخارج عند رفيقاتي، كان هناك من يصغي لكلماتي ويتلهف لسماعها، كنت أفرض عليهن الاحترام، ولم يكن يزعجني شيئاً كوني وحيدة وغريبة.. كنت بالأحرى سعيدة لأني لست في منزلي مراقبة من كل العيون.. كنت جميلة وجذابة.. أعرف ذلك من نظرات أولئك الذين يزورون بيتنا أو التقي بهم في الشارع.. كانت نظراتهم تؤكد لي حقيقة ذلك الجمال وسطوته عليهم.

لم يكن أخي مرتبطاً بوالدتي عاطفياً أيضاً.. صار الحصول على المال هوساً بالنسبة إليه، وكان على استعداد للقيام بأي عمل في سبيله.

تساءل ذات مساء أمام أمي "إذا كان موجوداً على هذه الأرض!، وله والد مثل بقية الناس!".

أجابت دون أن تتوقف عن التطريز، أو تنظر إليه:

- من الأفضل أن تنسى الوضع حتى يرق قلب والدك ويشتاق لك.. أنا وفّرت بعض النقود، خذ منها ما شئت حتى تتدبر أمرك، وتذكر أن الله لا ينسى من فضله أحداً.

صمت لحظة، ثم ألقى بسؤال مثل من يلقي قنبلة:

- بالله يا أمي قولي لي الصدق.. هل هو حقاً والدي!؟.

امتقع لون أمي، قفزت الدماء إلى وجهها فجأة.. وقفت بتحفّز، وبلا مقدمات صفعته وبصقت على وجهه وقالت بغضب:

- اتفو على وجهك، تتهمني بشرفي يا خائن يا قليل الأصل!.. وهل ينجب الثعبان غير ثعبان ألعن من أبيه!.

صرخ محمود غاضباً:

- إذن لماذا لم تدافعي عن نفسك حين اتهمك..

قاطعته "لأنه غيور وشكاك، الوسواس دائماً يلعب برأسه.. كنت مخطوبة لشخص آخر قبل أن أرى والدك، لكنه فسخ الخطوبة وسافر إلى أمريكا، ولم أرَ وجهه منذ ذلك اليوم، ومع ذلك يعتقد أبوك أنه ما زال يتصل بي، إنه يشك في نفسه وفي كل الناس"..

وراحت تخفي وجهها بين راحتيها وتبكي بمرارة وألم.

تلك اللحظة، طلب محمود من أمي السماح واعتذر لما بدر منه.. لكنها لم تغفر له، ولأيام ثلاثة لم تكلمه ولم تنظر إلى وجهه.

تغيّر أخي محمود كثيراً، أصبح طاغية الأسرة بعد أبي.. كان يفتعل معارك بيتيه، يشرب الشاي ثم يلقي بسؤال عن الماضي والحاضر والمستقبل مثل قذيفة.. كنت أحس بتشرذمه وجوعه واغترابه ووحدته.. انفصل عن السرب، وراح يحلّق وحيداً، كنيزك يحترق ويهوي إلى البحر.

حاول السفر والهروب إلى لبنان أكثر من مرة متذرّعاً بالعمل، وكنت في قرارة نفسي أعرف أنه يرغب الالتحاق بعمي علي وبالمنظمات الفدائية الموجودة هناك.. نضبت أعماقه وهام كسراب في صحراء عبر شوارع عمان، وكنت أشعر انه وحيد حتى الكآبة، وحيد رغم الضجة والسهرات عند جدي، وحيد رغم تكاثر عدد الأحياء والأموات، بحر هائج تتلاطم الأمواج في أعماقه دائماً.

كثيراً ما كان يتذكّر عمي علي، ويتساءل عن كيفية الوصول إليه.. ولم ينقضِ يوم واحد دون أن يذكر فلسطين أو كلمة يهود.. راح يخربش على الأوراق ويرسم على الجدران خريطة فلسطين وبندقية الكلاشنكوف.. وأخيراً وشم على ذراعه كلمة فلسطين وتركها ظاهرة للعيان.. تبلورت الفكرة في رأسه.. تجسّدت ذات يوم في ألبوم صور "حنظلة" لناجي العلي.. كنت أراه يتصفح المجلات ويبحث في الصحف اليومية القديم منها والجديد، يُنقّب فيها عن صورة لحنظلة.. يقص الصورة، ويجد لها مكاناً في ألبومه الجديد.

يحدّثني عن الكاريكاتير الذي بات يغزو كل بيت وكل قلب، عن حنظلة والهدية التي لم تصل بعد، عن شعره الذي يشبه شعر القنفذ، يقول إن حنظلة ولد في العاشرة من عمره، لكنه بعمر أجيال وبعقل عالم فيلسوف، وسيبقى صغيراً حتى يتم تحرير

فلسطين.. ولم أكن أفهم من كلامه شيئاً.. وفي مساءآته الحزينة يجلس ساعات طويلة يتصفح حافظة الرسومات، ويعيش مع حنظله.

***

١٠

كانت والدتي تسهر عند جدتي، وأخي محمود يعبث بخزانة والدي تلك الليلة، يبحث عن ملابس أو نقود.. بدا غاضباً وعلى استعداد أن يتشاجر مع كل من يسأله عما يفعله تلك اللحظة.. شاهدته يتناول حقيبة والدي "السمسونايت" القديمة التي يجمع فيها أوراقه الخاصة، ويحتفظ بمفتاحها في جيبه دائماً.. حاول أن يفتحها بالقوة، وعندما حاولت منعه دفعني بكل قوته كثور هائج، وصرخ في وجهي:

- سأذبحكِ إن تعرضتِ لي مرة ثانية.

للمرة أولى أشعر بقوة محمود، كانت تقاطيع وجه والدي وملامحه وهو يضرب أمي ترتسم على وجه أخي.. شعرت بالخوف منه فعلاً، أحضر مفكاً وشاكوشاً وانكب على الحقيبة لعدة دقائق حتى خلع القفل، وراحت يداه تعبثان بما في داخلها من أوراق، وعندما لم يجد نقوداً، أخذ يتصفح أوراق والدي، ورحت

أتصفحها معه.. ومن بينها عثرنا على ورقة معنونة بوثيقة طلاق صادرة عن المحكمة الشرعية، وتاريخها يعود لعدة أشهر قبل سفر والدي.. والدتي كانت مطلقة من حيث لا نعلم، ووالدي ينام في البيت، يأكل مما تطبخ ويلبس مما تغسل.

هزّتنا المفاجأة وصدمتنا، كتمتُ وأخي السر، وطلبت منه أن يلزم الصمت حتى يعود والدي من سفره ونعرف الحقيقة، لكن محمود لم يصمت بعد أن نفذ صبره مساء اليوم التالي، وسأل والدتي إذا كانت تعرف إنها مطلّقة أم لا؟، أنكرت أمي معرفتها بأي شيء.. ثار محمود من جديد.. نزع الوثيقة من جيبه ولوّح بها أمام عينيها قائلاً:

- انظري جيداً، اقرئي ماذا فعل بك قبل أن يسافر مع زوجته.

ثارت ثائرة أمي ولعنت والدي، وقالت إنها تشك في أن يكون ابن حلال.. وتمنت لو ماتت قبل أن تعرف هذا الخبر، ثم انزوت تبكي بحرقه وألم.

تلك اللحظة أحسستُ أن وحشاً مفترساً غرس أنيابه ومخالبه في جسدها، قطع لسانها وأفقدها النطق والسمع والبصر.. شعرتُ أن الدنيا دارت برأسها عندما تكوّرت في الزاوية المعتمة ساكنة، خائفة من المجهول.. تلاحقت أنفاسها، وبدت كمن يتجرّع نيراناً مسكوبة في كأس بنواح مسكون.

عند الفجر، انبلج الألم على حين غرة، وصرخت صرخة هوجاء.. انطفأت روحها وتكلّس قلبها بوجع الفراق بعد أن عرفت النهاية، وأيقنت أن زوجها تلاشى سراباً في البعيد.. قالت "الله لا يسامحه".

قلت لها: إذا فقدتِ زوجاً، فأنت ما زلتِ أمّنا، وسنعيش معاً على الحلوة والمرة.

لم تجب، وبقيت واجمة ساعات طويلة، بدت غاضبة طوال الوقت، وفي الليل ونحن نتظاهر بالنوم، أخذت تجوح بما يشبه عويل حيوان يتعذب.

في لحظة غضب تناولت صورة زفافها ومزّقتها، انفجرت بالبكاء، لم تكن تذرف دموعاً، بل صراخاً يائساً.. شعرتُ أنها ستنقضّ علينا تبلّلنا بالبنزين وتشعل عود ثقاب.. الطلاق جعلها عاجزة عن كل شيء، ظلّت لفترة وكأنها خارجة من عملية جراحية في دماغها، البيت أظلم، الحياة أظلمت، الحياة صارت أكثر عذاباً، وراحت أمي مثل امرأة بكماء صماء تصرخ من داخلها وتنتحب.

ذات مساء دار حديث طويل بين أمي وجدتي وأنا أصيخ السمع بين النوم واليقظة في فراشي، قالت بأن زوجها "يعتقد أن المرأة مثل السيجارة، يقاتل في سبيل الحصول عليها إذا اشتهاها، ثم يلقي بها على الأرض ويدوس عليها بقدمه في حال الانتهاء

منها.. إنه لا يثق بامرأة على وجه الأرض.. كل امرأة في نظره مومس.. حتى الحيوانات لم تسلم من شره.. إنه يشك في نفسه، ويتساءل في سريرته إذا كان هو من صلب أبيه حقاً".. لامتها جدتي على سوء ظنها بزوجها وقالت أنها ظلمته بما قالت.

تلك الليلة هتكت والدتي ستر الليل، بكت وتحدثت عن مطاردات أبي لها قبل الزواج، وعن خيبتها معه منذ ليلة زفافها..

ومع أن أمي تلاشت بين العذاب والوجع، وذابت في خرائب الحياة دون أن تنال حق الدفاع عن نفسها.. إلا أن كلماتها ما زالت تدق في أذنيّ مثل المسامير.

***

١١

ذات ليلة، وبعد أن فقدنا الأمل بعودة أبي، ظهر بيننا فجأة.. لم يسلّم ولم يأخذنا بين ذراعيه كما يفعل الآباء عند عودتهم من السفر، تجاهلت أمي رؤيته، ولجت غرفتها وأغلقت الباب بالمزلاج من الداخل، وانتحينا جانباً ننتظر أوامره.. أمرنا أن نجمع أغراضنا للإقامة مع جدي بعد أن تدبّر الأمر معه، وسيعود لاحقاً بعد أن يقضي بعض أعماله.. وخرج عائداً من حيث أتى بلا سلام ولا وداع.

قال جدي "ما أعزّ من الولد إلا ولد الولد.. وأنتم أعز من أبنائي، البيت يتسع لنا جميعاً.. وإذا أرادت والدتكم الحياة معنا فعلى الرحب والسعة، وأنا أحميها من طليقها".

وأضاف مخاطباً والدتي أنه يعرف أن زوجها "غضيب الوالدين" وإنه لا يستحق النعمة، وأضافت جدتي أنها حاولت إقناعه بإعادتها إلى كنفه، "والرجل الأصيل يجمع اثنتين أو ثلاثة ولا يظلم منهن واحدة".. لكنه ركب رأسه ورفض، وتبع هوى المرأة الجديدة.. "لكن الله لا ينسى من فضله أحداً".

أمي دخلت شرنقة الزواج كفراشة تتهادى، وخرجت بعد الطلاق حشرة مقضياً عليها تزحف على شبكة عنكبوت.. طلاقها جسّد مصائبي وأحزاني، ودفع كل فرد من أفراد العائلة بأن يبحر وحيداً بغير هدف.. أما أمي فكانت تبحر في نور باهت المعالم، مثل قارب مهجور في البحر الميت، لا يوجد فيه أصوات حياة.

***

في لحظات المساء وأثناء سهراتنا ونحن نتجمع لمشاهدة التلفاز، كان جدي يفتعل إضحاكنا، يحاول أن يرسم ابتسامة على شفاهنا ووجوهنا، ويحاول دائماً أن يزرع في نفوسنا الأمل والصبر بعد أن تبدلت حياتنا.. خرجنا من جلودنا القديمة وارتدينا جلوداً جديدة من الصبر، فصّلناها حسب مقاسنا الجديد.

كان جدي مثالاً يرتقي في عينيّ إلى مرتبة الأولياء، قال لنا "يا أولادي.. في مهد العواصف، لا بدّ أن يتمسّك المرء بشيء صلب".. وأضاف "لكل إنسان صخرته التي يتمسك بها وقت محنته.. الإرادة الداخلية والثقة بالنفس.. ابحثوا في أعماقكم يا أولادي إذا كانت تنطوي على إرادة، لكن لا تيأسوا من الحياة، ولا تقنطوا من رحمة الله".

جدي كان شجرة الخير التي أثمرت في أعماقنا، وصخرة الإرادة التي تمسّكنا بها وقت الشدة.. همس ذات ليلة بأذن أمي:
"هذه حال الدنيا.. الدنيا لا تدوم لإنسان، وإذا استطعتِ أن تتدبري أمرك وتتزوجين من جديد، فالزواج ليس عيباً، والمرأة ليس لها إلا الله، ثم رجل يحميها من عثرات الزمان".

راود أمي إحساس بأنها النهاية.. ظلت طيلة الليل تبحث الأمور مع جدي، وحين عرفت أنها الخاسر الوحيد بعد أن يكبر الأولاد ويركن كل منهم في بيته مع زوجه، اختصرت الطريق في أعماقها، ولم تُكذب خبراً.. خرمت أذنيها وعلّقت كلمات جدي حلقاً بهما، وقالت أنها لم تشعر بالغربة مثل يومها هذا، وأضافت "كان الأمان معه خرافة، كمن يحتمي بخيال مآته".

لشهرين تاليين حاولت إقناعنا بأننا كبرنا ولم نعد نحتاج لأحد، طالما نحن في كنف جدي وتحت رعايته.. وقالت بأن لكل إنسان طاقته، كما لكل إنسان صخرته التي يتمسك بها وقت محنته..

فاجأتنا بعد ذلك بزواجها من رجل عربي ثري يحمل الجنسية الأمريكية، اعتقدتْ أنه سيحقق أحلامها المكبوتة، وغادرت معه إلى وطنها الجديد.

***

١٢

في سريرتي، وبعد أن انطلقت أمي من شرنقة أبي، تمنيتُ لها السعادة مع زوجها الجديد، بمقدار غضبي على أبي بعد زواجه على أمي.. أما أخي محمود فتمنى لو ماتت أمي قبل أن تتزوج، وأضاف "لو ماتت لكان الأمر أسهل علينا وعليها، ولكنتُ ذرفتُ في مأتمها دموعاً حقيقية، أسهل عليّ من أن أجلس مع أخوتي يحدّق كل منا في الآخر، ويخبره إن أمه تزوّجت".. وفي قرار نفسي كنت أتساءل "كيف أمكن لشخصين أحب أحدهما الآخر وأحسّ أنه غير مكتمل أثناء غيابه، أن يصلا إلى تلك اللحظة المخيفة، ويقررا أن زواجهما كان خطأ لا يصلح!.. كيف استطاع والدي أن يتنكّر في ثوب اللامبالاة والغضب والكره، وينظر إلى أم أولاده بهذه النظرة السوداوية، ويطرح جانباً جزءاً مهماً من تاريخه معها!".

بعد أيام من رحيل والدتي، انزوى أخي محمود داخل غرفته، وراح يتألم في الليل.. غمر حياته في أشيائه الباردة.. نظر إلى الفراغ وأخذ يتأمل صورة حنظله.. حاول جاهداً أن يستعيد حاضره وينسى ماضيه، لم يستطع.. لم يجرؤ النظر إلى الحاضر والمستقبل بعد زواج أمي ورحيلها.. لم يصدّق، وراح يتساءل على مسمعي إذا كان هذا الرجل الذي تزوجها هو نفسه الذي خطبها قبل أبي!، وهل كانت تخدع أبي طوال المدة السابقة!! ومن منهما الصادق!، وشقيقها، هل هو بريء من هذه المؤامرة التي قادت أمي إلى أمريكا!؟.. مشاعر مجنونة كانت تجتاحه، تلعب برأسه وتدفعه للهروب من الحياة.. أقنع نفسه بالرحيل إلى لبنان.. فتح الباب وخرج.. تذكّر أنه لا يملك جواز سفر.. راح يمشي إلى أن تعب.. التجأ إلى مقهى وسط العاصمة.. خبّأ حزنه وسط طيات ملابسه، وجلس يرتشف الشاي على مهل.

عند الفجر عاد يملأ مساماته بأحزان العالم.. خيباته تضاعفت وهو ينقل خبر استشهاد عمي علي مع رفاق له في جنوب لبنان.. قال إنه سمع الخبر من المذياع، وتأكّد من صحته من مكتب المنظمة.. ثم لطم وجهه بيديه وراح يضرب رأسه بالجدار وهو يقول إنه جبان وتافه، لأنه لم يستطع اللحاق به، كما لم يستطع كتمان الخبر حتى الصباح.

كالصاعقة وقع الخبر على مسامع جدي وجدتي.. ظلّ جدي صامتاً بضع دقائق، ثم بدأ يقرأ آيات قرآنية ويتمتم بكلمات غير مفهومة، ولم يصدّق الخبر.. قال إن ولده نذر نفسه للشهادة في سبيل فلسطين، والشهيد حي يرزق عند الله، وتلا آية من القرآن الكريم "قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا"، وتابع قائلاً إنه سمع خبر استشهاده أكثر من عشر مرات، ومع ذلك تأكد له بعد كل مرة أن الأخبار كاذبة، وإنه حيّ يرزق في لبنان.

جدتي بدت كالخرساء.. راحت تتشاغل بحاجياتها وتلملم أغراض البيت.. تخنق دموعها وتخفيها عن أعيننا.

عند الصباح وبعد أن تأكد خبر استشهاده، جمع جدي الأقرباء وفتح بيتاً للعزاء ثلاثة أيام متواصلة.. قال إنه عرس للشهيد وليس بيت للعزاء، واستقبل المهنئين.. زغردت جدتي وبكت في نفس الوقت، وتمنت لو شاركها في العزاء أولادها الذين هجروا بيوتهم مع أزواجهم منذ وقت طويل، ولم تعد ترهم إلا في الأعياد والمناسبات.. كانت تتأمل صورهم وتبكي، ثم تعود إلى صورة عمي الشهيد المعلّقة على الجدار ببذلته العسكرية، تتأملها وتمسح الغبرة العالقة عليها، تندب بصمت، ثم ترطّبها بدموعها وتعيدها إلى الجدار.

***

بعد استشهاد عمي وزواج أمي ورحيلهما عن هذا العالم، شعرتُ أن حقولاً بأكملها جفّت، سنابل القمح ظمئت وماتت عطشاً.. أحسستُ أن جسدي توقّف نموّه طولاً وعرضاً.. أمي صارت متاهة وضياع، وأمست ناراً أحرقت خيالي.. وحتى هذا اليوم، وعلى مدى سنوات عمري تتراءى لي صورتها مثل حلم من الصعب نسيانه.

***

١٣

ما أن انتهت أيام العزاء وفترة الحداد حتى وقع جدي طريح الفراش.. تناست جدتي خبر استشهاد عمي، وحرصت على طعام جدي وشرابه الساخن، وأبعدته عن مجرى التيارات الهوائية، وكانت مستعدة أن تفعل أي شيء من أجل شفائه.

ذات ليلة من ليالي رمضان، وبينما كان جدي يغط في نوم عميق.. شاهدتُ جدتي تنحني عليه وتستنشق ملء صدرها أنفاسه، وخمّنت أنها تفعل ذلك بدافع الأمل أن يكف الموت عن افتراسه، وتمنت أن يسلبها روحها بدلاً منه.

في ليلة أخرى زأر الموت وطوّح بجسد جدي وكأنه عاصفة رملية، تأرجح رأسه فوق الوسادة، واختفى وجهه تحت ظلال

صفراء.. همست جدتي في أذني "الله يستر، أرسلي لوالدك ولأعمامك كي يعودوا من غربتهم، ويراهم جدك قبل أن يصيبه مكروه"، ثم قامت ومسحت وجهه بمنديل، ورطّبت شفتيه بسبابتها المبلّلة بالماء، ومضت تهلّل له كالأطفال.

مكث جدي صامتاً برهة طويلة، ولسبب ما خُيّل لها أن عينيه مغرورقتان بالدموع، ولم تجرؤ على رفع جسمها لتتأكد.. وعندما تكلم لم تنمّ بحة صوته عن البكاء.. قال:

- لا أدري كيف ستتدبّرين أمورك عندما تصبحين أرملة!؟.
- وحّد الله.. الله يجعل يومي قبل يومك.. قالت والحشرجة تملأ صوتها.
- أنا لا أخاف من الموت، لكني أراه يقترب.

كان جدي يتألم كثيراً، ومع ذلك حاول بكل طاقته أن لا يذكر اسم عمي الشهيد أمام جدتي.

ما زلت أذكر جدي بلحيته البيضاء ووجهه الأسمر.. جسده النحيل وأهدابه الكثة وشعره الفضي.. وما زلت أذكر نظارتيه السميكتين بلونهما الأبيض وإطارهما البني، يجلس قرب الباب في إناء الليل وأطراف النهار محني الظهر والمصحف الكبير بين يديه يقرأ القرآن، يبكي ويهيل الدموع.. يجمعنا حوله ويشرح لنا قصة يوسف مع أخوته وأبيه، وقصة يعقوب وقصة زكريا،

وقصة موسى مع قومه والبقرة الصفراء وعجل هارون، والأنبياء الذين ورد ذكرهم في القرآن.. ولا يفوته قصة المسيح عيسى بن مريم العذراء، وقصة رسول الله محمد خاتم الأنبياء ونزول الوحي والواجبات الدينية.. ثم يحكي لنا عن أعمامي وطول غيابهم، ومدى اشتياقه لرؤيتهم.

لم تُخفِ جدتي دموعها عن جدي تلك الليلة، وكان ذلك يقضّ مضجعه، لا سيما في ساعات الليل عندما يستلقي ويطوح بنظره على الجدار المعلّق عليه صورة عمي الشهيد، والحقيبة التي تحوي بداخلها المصحف الشريف.

كان جدي يخشى من كون جدتي تبكي على نفسها، ولا أدري إذا كانت جدتي تبكي رحيل جدي أم استشهاد عمي، لكني أقنعتُ نفسي أنها تبكي على نفسها بعد رحلة العمر الطويلة، وفي ذلك شيء من الحقيقة.. فكثير من النساء اللاتي عشن بسعادة مع أزواجهن أصبحن وهن أرامل فقيرات يائسات.. فإذا مات العائل تمسي لقمة العيش حلماً، وتمضي المرأة وحيدة مكسورة الخاطر بعد أن يهجرها الأولاد، ويتأبط كلّ منهم امرأته ويرحل إلى بلاد الله الواسعة.

عادت جدتي ومسحت وجه جدي.. توهّج وجهه ولاحظ أن شفتها السفلى شاحبة ترتجف.. رسم ابتسامة وحاول أن يقول شيئاً

عن المودة الصادقة، بيد أن الكلمات بدت وهو في حالته هذه عديمة القيمة.

أعماقه كانت تصرخ، وبدا على وجهه أنّات مخنوقة.. همس بصوت مجروح:

- أموت وحدي غير نادم إلا على فراقك.. لم أقطع فرضاً ولم أترك صلاة، وها أنا أقابل وجه ربي..

التصقتْ بجسده.. شعرتْ أن برداً يجتاح ظهرها.. أخفت دموعها وقالت:

- وحّد الله.. لا تنفعل أنا بجانبك، وسأموت قبلك بإذن الله.

قال بصوت حالم: لا إله إلا الله.. لا تبكيني ولا تريني دموعك الغالية.

همست في أذنه: من يوم ما وعيت على هذه الدنيا، لم أعش أياماً أحلى من التي عشتها معك.. آه لو أستطيع أن أفديك بعمري.

صمتت لحظة.. قفزت دمعة من عينيها، أضافت:

- كيف بدّك ما أبكي!.

أدار جدي وجهه جانباً ولم يتفوّه بحرف..

تعكّر صفو عينيها.. قالت:

- ستعيش بإذن الله.. الله لن يتخلى عني وعنك وعن عباده الصالحين.

- الأطباء ملاعين.. كل طبيب يعطيني دواء شكل، ويصف لي وصفات جديدة، وأنا لا أعرف من أصدّق.. إنهم غير صادقين.. يقولون بأني سأعيش، وأنا أعرف أني سأقابل وجه ربي في أقرب وقت.

لم تتفوّه جدتي بكلمة.. طلبت منه أن يقرأ القرآن في سريرته، وراحت هي الأخرى تقرأ ما تيسّر لها ومما تحفظه من الآيات القرآنية.. ومع ذلك ظلّ جدي ثلاثة أيام متتالية يعاني من سكرات الموت، يحرّك يده، ويشير بسبّابته إلى المصحف الموضوع داخل الحقيبة المعلّقة على الجدار، قرب صورة عمي الشهيد.

- تعالي يا جهاد اقرئي القرآن على مسمع جدك. قالت جدتي.

تناولتُ المصحف من الحقيبة المعلّقة على الجدار، وجلستُ قرب رأسه في الجهة المقابلة لجدتي.. كان ممدداً في فراشه ومغطى بحرام صوفي بني اللون، ولم يعد يظهر من جسمه غير وجهه الأصفر الشاحب ولحيته الكثة البيضاء، أما جدتي فكانت تسند ظهرها للجدار وتخفي ساقيها تحت الحرام، ولا يفصلها عني غير وجه جدي.. كان الوقت ليلاً والساعة تقارب منتصف الليل، نور المصباح كان باهتاً يميل إلى الصفرة، ورغم حرارة الجو الصيفي إلا أني شعرت بنسمة باردة تسري في عروقي، انتابتني قشعريرة، وبدت الغرفة كئيبة وخزانة جدي بخشبها الأصفر

القديم مهترئة.. كان المصحف بخط كبير وواضح.. أوراقه صفراء من الحجم الكبير، قرأتُ سورة يس، ثم انتقلت إلى سورة الكهف.. كنت أقرأ وأرقب أنفاسه.. أحنى وجهه قبالة وجهي.. راحت أنفاسه تتهادى وتخفت، شعرت أنه يغط في غيبوبة نوم وراحة.. بدا تنفسه الضعيف لا يكاد يحرك الشعيرات الكثة المتطاولة من شاربيه الغليظين.. فتح عينيه وراح ينظر إلى وجهي.. أخذت حدقتا عينيه تتّسع.. شعرت أنه لا يراني ويحدّق في الفراغ.. بدت لي عيناه مثل بحيرة ماء هادئة ألقي بها حجراً، فانطلقت دوائر صغيرة تتّسع وتتلاحق بصمت مخيف.

للمرة الأولى أشهد فصلاً من فصول الموت.. كان ملاك الموت حاضراً، يتمدّد فوق جسد جدي الضعيف، يمشي مختالاً ويتبختر بيننا.. أحسستُ به يلامس جسدي مثل نسمة هواء، وبدت رهبة الموت أقوى من أن يحتملها قلبي الصغير.

جدي كان هادئاً، وجدتي تبلّل سبابة يدها وترطّب بها شفتيه.. قالت بصوت مخنوق: أنت الحي الباقي يا الله، الحمد لله على ما أصابنا، منك العوض وعليك العوض يا الله.

أذكر أني صرختُ ومزّقت شعري لأول مرة في حياتي.. نهرتني جدتي وقالت: لا تبكيه يا جهاد، إن رحمة الله واسعة.. الآخرة خير وأبقى يا ابنتي.. وحّدي الله وترحّمي عليه.

وفي الحال سبلت جفنيه وعقدت يديه على صدره، ثم حاولت الوقوف.. أحسستُ بأن قواها خارت، وإنها تحمل على كاهلها ثقل أحزان العالم، اتكأتْ على الجدار ووقفت بصعوبة.. مسحت الدمع الذي تحجّر في عينيها كحبات رمل.. رفعت عنه الحرام، ضمّت ساقيه إلى بعضهما البعض وعقدت إبهاميّ قدميه بخيط رفيع، هندست هندامه، ثم غطّته ثانية، وقالت وهي تودّعه بنظراتها:

"لا إله إلا الله.. أنتم السابقون ونحن اللاحقون.. الله يرحمك ويدخلك الجنة من أوسع أبوابها.. سلّم لي على ابني الشهيد".. وغاصت الكلمات في حنجرتها واختنقت.. وأضافت بعد لحظة صمت:

"لا ينفع البكاء يا ابنتي يا جهاد، قومي وأرسلي في طلب أخيك محمود حتى يبلّغ الأقارب والجيران، ونستعد لاستقبال المعزّين".

بعد منتصف الليل، وصل عمي صالح مع عمي أحمد قادمين من السعودية، كانت علامات التعب بادية عليهما.. ليلتها احتضنتهما جدتي كرضيعين، استعاد ثلاثتهم ماضيهم وبكوا كالأطفال، وذرفت عمتي فاطمة دموعاً حقيقية على فراق جدي، وفي الصباح تجمع الأقارب وقاموا بدفن جدي في مقبرة أم الحيران.

ظلّت جدتي ثلاثة أيام صامتة وجالسة في غرفتها على السرير كالمقعدة، وفي مساء اليوم الثالث وبعد أن غادر المعزّون،

انفجرت نائحة، وراحت عبر أنين صامت تبكي وتنشج كطفلة صغيرة، ولم تقو على الوقوف.. وتبيّن لنا في الساعات التالية أنها أصيبت بشلل نصفي، ولم تعد قادرة على الوقوف أو الحركة.

***

١٤

بعد أكثر من عام، تحسّنت أحوال جدتي، وراحت تتحرك على كرسي بعجلات داخل البيت، ومع ذلك لم تنس جدي.. كانت تتذكّره ليلاً نهاراً، وتقول "إنها تشتاق له كاشتياقها لأنفاسها".. وفي الأمسيات تجمعنا أنا ومحمود ووفاء وصابر، وتحدثنا عنه وعن فلسطين "عروس البحر المتوسط" كما كانت تسميها، وعن الهجرة والضياع والمذابح التي اقترفها اليهود بحق الشعب الفلسطيني، وعن عمي الشهيد.. ثم تعرج ثانية لتحدثنا عن حياتها

مع جدي، وتصمت قليلاً لتسرح عبر لحظة فرح منسية قضتها منذ زمن بعيد معه، وتتابع ذكرياتها وكأنها محفورة في الصخر.

حكايات جدتي لم تتوقف يوماً عن مسامعنا.. قالت إنها تزوجت وعمرها لم يتجاوز الثالثة عشر، أما جدي فكان يناهز الثلاثين من عمره.. ولد مع ولادة القرن العشرين، أثناء سنوات المجاعة التي كان يأخذ فيها الأتراك شباب فلسطين كي يحاربوا في اليمن.. أما جدتي فقد ولدت في العام الذي وعد فيه بلفور اليهود بأرض فلسطين.. أنجبت عمي صالح في العام الذي أعدم فيه الإنجليز شهداء الوطن فؤاد حجازي ومحمد جمجوم وعطا الزير.. وتوالت سنوات الإنجاب حتى عمي الشهيد الذي ولد تحت القصف والخوف والرعب في عام الهجرة، أثناء مذبحة دير ياسين.

تصمت جدتي، تغرقنا في صمتها.. نتلهّف لسماع المزيد.. نرجوها قبل النوم أن تتابع.. تعود إلينا فجأة من ماضيها البعيد.. وحين ترى الدموع في أعيننا تحاول إسعادنا بلحظة فرح.. ترسم ابتسامة على شفتيها، تستعيد ذاكرتها، وتحدثنا عن العرس الفلسطيني أيام زمان..

"كانت النساء يتجمعن ليلة الحنة في بيت العريس.. يُغنّين ويرقصن ويخلطن الحنة بالكاز والخميرة والشاي المغلي، ثم يتركن الحنة لتتخمّر.. وفي مساء اليوم التالي يتجمعن ثانية ويعدن

الرقص والغناء.. بينما تحمل إحدى قريبات العريس على رأسها صينية واسعة من القش الملون، وقد صُفّت بداخلها مناديل ملوّنة ومطرّزة، ومحشوة بقطع صابون معطّرة، أو بزجاجات عطر صغيرة، أو بحبات من القضامة والحلو، ترقص وتوزع المناديل على النساء.. أما الصغيرات من قريبات العريس فيقمن بتوزيع الحنة على بيوت القرية، أمام النساء اللاتي ينطلقن يغنّين في طرقات القرية الترابية، ويسلكن الطريق الأطول إلى بيت العروس.

وتستعمل العروس المساحيق للمرة الأولى في حياتها تلك الليلة، تتزيّن وتجلس تنتظر قدوم النساء من أهل العريس.

وفي مساء يوم الجمعة، وبعد الذبح والطبخ وغداء أهل القرية، يذهب أهل العريس إلى بيت العروس، يطلبون الإذن من والدها، ويعودون بها إلى بيت العريس.. وحين تمر الفاردة "زفة العروس" أمام بيوت القرية، تقوم النسوة برش الملح من خلال شرفات البيوت على العروس، لطرد العين والحسد وطرح البركة.

في المساء، وفي بيت والد العريس تبدأ مراحل زفة العريس ونقوطه.. يجلس العريس في ساحة كبيرة وسط الرجال ويجودون عليه بما طابت أنفسهم من مال وسكر وأرز.. ثم يزفونه ويدخلونه إلى العروس".

تصمت جدتي لحظة.. تسرح عبر أحلامها، تتذكر ليلة زفافها، والأيام التي انقضت ولن تعود.. ومع أنها كانت تخفي دموعها عن أعيننا، إلا أننا كنا نحس بها، ونشعر بما تحس به من ألم بين ضلوعها.. تترحّم على عمي الشهيد وعلى جدي، وتقول "موْت الشاب يشبه سفينة تتحطّم، أما موت الشيخ فيشبه سفينة تصل إلى الميناء".. وتتابع بعد لحظة صمت "الله يسامح أبوكم، تركككم وتبع كيد النساء"، ولم أكن أفهم ما تعنيه من "كيد النساء".

***

١٥

مر عامان على وفاة جدي، عمل أخي محمود خلالها نجار طوبار، وكان يكفينا مصروف البيت وحاجة الآخرين.. أما صابر فقد عمل بائعاً للخضار عند أحد التجار، ولم يكن يدّخر قرشاً من عمله.. كان يصرف كل ما يملك على نفسه وعلى أصحابه وعلى السجائر التي يدخنها خفية عن أخي محمود.

ذات مساء، ظهر والدي بيننا فجأة، كان يقود شاحنة صغيرة بيضاء اللون.. تحدث مع جدتي طويلاً تلك الليلة، وفي الصباح غادر البيت ثانية، ولم يقل لنا عن وجهة سيره.

بعد أربعة أيام عاد يحمل حقيبة جلدية سوداء قديمة، نثر محتوياتها أمام جدتي وقال "هذه أغراض أخي الشهيد وبعض ثيابه"، ولم يتطرق لمدخراته التي استلمها من مكتب منظمة التحرير في بيروت، كما تبيّن من أصدقاء عمي الشهيد فيما بعد.

عادت جدتي تسترجع الماضي في ذاكرتها بشوق ولهفة.. دموعها فضحت حزنها المكتوم.. راحت تقلّب ثياب عمي الشهيد بين يديها.. تشمها وتضمها إلى صدرها، تترحم عليه وتذرف الدموع بصمت.

في اليوم التالي أيقظنا والدي من النوم عند الفجر على عجل، وأمرنا أن نجمع أغراضنا ونستقل السيارة للسفر معه.. لم نناقش ولم نستفسر عن شيء.. المفاجأة أخرستنا، وشعرتُ أننا قطيع من الغنم يقودنا راع ضلّ طريقه.

نظرت جدتي إليه نظرة عتاب ولم تنطق بكلمة.. تسابقنا إليها وأشبعناها من قبلاتنا.. بكيتُ ووفاء على صدرها.. قالت:

"هذا أبوكم، والظفر لا يفارق اللحم.. الله يحنّن قلبه عليكم".

ألـحّ أبـي وطلـب منـا الاستعجال فـي وداعهـا.. وعندما تركتها شعرتُ أن قلبـي انخلـع من صدري، وعـاد إلـى مكانـه الدافئ فـي صدر جدتي.. وفي اللحظة الأخيرة، وقبل أن يهم أبـي بالصـعود إلى السيارة نادته جدتي، وقالت:

- اتّقِ الله يا ولدي في أولادك، إنهم من لحمك ودمك، لا تقسُ عليهم ولا تظلمهم.. فإن تخلّيت عنهم، فإن الله لن يتخلّى عنهم.

ابتسم وقال: وهل توصيني بأولادي!.

قالت: ما أعزّ من الولد إلا ولد الولد.. روح يا ابني، دير بالك على حالك وعليهم، قلبي وربي معكم، الله يرضى عليكم.

****

الفصل الثاني

١٦

بعد رحلة عذاب طويلة دامت يوماً وليلة، وصلنا بيت أبـي الجديد في الدمام شرق المملكة العربية السعودية.. شاهدتُ خالتي "زوجة أبي" تقف قرب الباب بانتظارنا، وهي المرة الأولى التي

أشاهدها فيها.. استقبلتنا بفرح وابتسامة عريضة.. كانت ترتدي الزي الفلسطيني، ثوباً أسود مطرزاً بالحرير الأحمر، متوسطة القامة، شعرها قصير ناعم لا يكاد يغطي رقبتها من الخلف.. أما وجهها فحنطي اللون مائل إلى السمرة، لا تغطيه أية مساحيق.. استقبلتنا بفرح تلك الليلة، قبّلتني وقبّلت أختي وفاء، وقالت وهي تبتسم "والله كبرتِ يا جهاد، وصرتِ عروس"، لكن نظراتها كانت تحمل طابعاً آخر، لم أشاهده في عيني أمي من قبل.

سهرنا معاً تلك الليلة، رغم التعب الذي واجهناه أثناء رحلتنا الصحراوية، تعرّفتُ على أسرتنا الجديدة، أخت في الخامسة، وأخ في عامه الثاني من زوجة أبي.

بعد منتصف الليل، وبعد أن انزوينا في غرفة جانبية أعدّها أبي خصيصاً لنا، أسرّ أخي محمود بأنه لم يحب هذه المرأة منذ اللحظة الأولى، وإنها لن تكون بديلة والدته، ولزم الصمت.

أختي وفاء راحت تبكي بلا مقدمات ودون سبب واضح، وقالت "إننا انتقلنا من سجن إلى آخر".. أما أخي صابر فلم يأبه للأمر، وأخذ الأمور على عواهنها.

عانيتُ من كابوس ثقيل تلك الليلة، شعرتُ بمرارة في فمي، وجال بذاكرتي كل أنواع التفاصيل المعاشة والدقيقة.. كيف ولدت

وكيف عشت هذه الحياة!.. كيف واتتني القدرة على الرحيل ومفارقة جدتي في عمان!، وكيف وصلتُ هذه الديار!.

لم أنم تلك الليلة.. كان الفجر رطباً، والصباح صافياً صفاء لا محدوداً.. أما السماء فكانت زرقاء زرقة لا نهائية.. تصوّرت الحر الذي يشعر به أهل الصحراء في ذلك الجو، يتنفسون رائحة الغاز المشتعل، ويغتسلون بماء البحر.. وتمنيت أن لا تدوم إقامتي طويلاً في هذه الغربة.

في الصباح أخبرنا والدي أن هذه الغرفة للنوم فقط، "أما بقية النهار فستساعدون خالتكم في أمور البيت وتحضير الطعام".. واصطحب أخي محمود إلى عمله.

في الأيام التالية، عاد والدي لطبيعته التي عهدته بها منذ سنوات طفولتي.. أخذ يطالب بأعلى صوته بالتوافه، يعطي أوامر متناقضة، يناديني أنا ووفاء في كل لحظة لسبب أو بدون سبب، يسعل ويبصق ويشتم دون توقّف، يدق مسامير في الجدران، يُغلق نوافذ الغرفة من الخارج بإحكام، ويحرك أدواته المعدنية وأخشابه الموجودة أمام الغرفة، وكأنه يصلح شيئاً معطوباً.. وفي الحقيقة لم يكن لهذه الأعمال أي هدف بعينه غير أن يشعرنا إنه سيد البيت، وإننا تحت مراقبته دائماً.. التلفاز تحت المراقبة، والسهر حدّده بحيث لا يتجاوز الساعة العاشرة.. وفي الليل يقوم بدوريات تفتيش على غرفة نومنا، ليطمئن على استتباب الأمن، ومتانة

حصون الأخلاق بين أولاده.. أما في غرفة نومه، فكنت أسمع بوضوح ضحكاته مع زوجته ومع أختي وأخي الصغيرين.

هذا الأسد الهصور، ما أن يدخل غرفة نومه عند خالتي حتى يصبح حملاً وديعاً.. تتأوّه وتقول إنها مجهدة.. وتضيف "طول النهار أعمل في البيت ولا أحد يساعدني.. يصعب عليّ القيام ويصعب عليّ الجلوس".. وفجأة يعلو بكاؤها الخافت، يصير نحيباً، ثم لا تلبث أن تهدأ، وكأنها ذات عاهة وقد سلّمت أمرها لله.. تتأوّه من جديد، تُدرك نقطة ضعفه، جسدها الأنثوي، يغمرها بحبه، وتُشعره أنه ملجؤها الوحيد.. وفي قرار نفسي أتساءل "لماذا لم يكن مع أمي كذلك!".

أذكر أن أمي كانت دائماً في انتظار أبي، وكانت في خريف عمرها حين حملت له الأيام زوجة جديدة.. اعتقد أنه هرب من محرقة، وتناسى أن أبناءه هم حطب المحرقة.. والدي أحرقنا بدل أن يدفئنا.

***

١٧

تلك الأيام، كثيراً ما كنت استسلم لتلك العواصف التي تأتيني بين حين وآخر.. تأخذ أحلامي، وتتركني ممزقة في صحراء ماتت فيها الحياة.

صبية مثل زهرة ذابلة، تلقّفتني العتمة وملأ الغبار جوفي، جيفة تعفنت في صحراء الصمت والقهر والغربة.. لا أحد ينظر إليّ، ولا أرى أحداً.. بدأ جسدي يتكلم ويتألم.. في لحظاته الغريبة راح يتكلم ويشعرني أنه موجود.. كنت أكبر في الليل وأتفتّح في الظلام، ولا أحد يراني أو يعيرني أدنى اهتمام.

شعرتُ بكراهية نفسي.. لكن على الرغم من ذلك ومما أراه وتقوله لي زوجة أبي، إلا أني لم أشعر بالكراهية المطلقة.. ربما الذنْب ذنب والدتي التي ملأت رأسي بالأفكار الجنونية من كثرة ما رأت مع والدي.. منها تعلّمت الحياة.. الشيء الوحيد الذي أملكه مع أخوتي هو الحياة الخطأ.

آه من هذه الحياة، وآه من قيود أبي وزوجته.

أحاسيس حزينة ما زالت تختلج في صدري.. معاناة السنوات والقهر، استباحة حياتي وأنفاسي، جراحاتي وتأوهاتي كبرت مع الزمن.. كنت أجاهد، أهرب بأحزاني دوماً.. لم أعرف الثياب الملونة في حياتي، حتى عباءتي، كانت حالكة سوداء كالليل الحزين.

خالتي "زوجة أبي" حاولت تقزيمي وأنا أرى الغيرة العمياء في عينيها.. أخذ جسدي ينافس جسدها، بل كنت الأجمل، وكانت تحاول بشتى الطرق إخفاء معالم جمال قوامي من خلال تقديم بعض فساتينها القديمة لأرتديها، تحاول أن تشعرني أني تحت رحمتها دائماً.

تحمل أخي الرضيع أيمن، تحتضنه وتقبّله، وتُذكّرني بغربتي دائماً.. تهمس بأذنه أحلى الكلمات وتنظر إليّ نظرات جارحة.. منها تعلّمت كيد النساء ولغة العيون.. تستطيع المرأة بنظراتها وحركات شفتيها وتقاطيع وجهها أن تتكلم بصمت، تتشفّى، تغازل، تغار، تحب، تكره، تلعن، تتودّد، تقاتل، تتألم، تفرح، تلعن وتشتم دون أن تنطق بحرف.. وعندما يعود أبي، تبدأ بذرف الدموع والتأوه.. تشكونا إلى الله وتطلب منه الخلاص، تشكونا إلى أبي وتنتحب.. ودون أسباب حقيقية يلاحقنا أبي أنا وأختي بصفعاته، لا يسألنا، زوجته الصادقة ونحن الكاذبتان، أنا وأختي سبب بلاء خالتي، سبب بلاء العالم بحروبه وأمراضه، أنا وأختي إرهابيتان، ووالدي شرطي العالم الشريف النظيف الذي يطارد الإرهابيين ليطهّر العالم من دنسهم.. تهرب أختي وفاء، تلتجئ إلى ظلام الغرفة، تنتحي جانباً وتبكي بصمت، وأنا بدوري أحتضن وسادتي أرويها بدموعي وأشبعها بحديثي عن القهر والحرمان، بينما يجلس والدي قرب باب البيت يداعب أخي

الصغير أيمن، وذاكرتي تجتر الأحداث، لا أذكر فيها أن والدي حملني بين ذراعيه مرة في حياته.. المرة الوحيدة التي داعبني فيها موشومة في ذاكرتي منذ طفولتي.. كانت أختي وفاء تلعب بأصابع قدميها، وقطة الجيران تذرع الغرفة وتتمسّح بثيابها، تموء وتهرهر وتخرج صوتاً ناعماً يشبه خرير الجداول.. جلس أبي القرفصاء واحتضن القطة.. كانت الأيام قد مرت ونسينا حكايات القطط وانتقام أبي منها.. داعبها هذه المرة، وهي المرة الوحيدة التي شاهدته فيها يداعب حيواناً، مع أنه لم يداعبني مرة واحدة في حياتي، لم يحملني، لم يحضنني مرة، ولم يقبلني مرة واحدة كما يفعل الآباء مع أبنائهم.

ضحك والدي بوجهي ووجه شقيقتي وفاء.. ركضتُ وجلست أمامه، ابتسم والدي للمرة الثانية.. حضن أختي وأخذ عن صدرها جرساً بلاستيكياً صغيراً، كانت أمي تلهيها به أثناء انشغالها في البيت.. ربطه في ذيل القطة.. أخذت القطة تموء، تدور حول نفسها وتلاحق ذيلها، تحاول الإفلات من الجرس، وأنا أضحك.. للمرة الأولى أضحك وألهو مع أبي.. داعبني أبي أيضاً، وحلّ من شعري شريطاً من القماش احمر اللون، كانت والدتي تعقص به شعري إلى الخلف.. ربطه مع الجرس في ذيل القطة.. داعب القطة ثانية ومسّد على شعرها وجسمها، ثم بلّل الشريط بالكيروسين وأشعل فيه النار فجأة.. ذُعرت القطة وقفزت بسرعة

البرق، ارتطمت في الجدار، دارت حول نفسها.. وحين خرجت من الباب كانت النيران تلاحقها، ذيلها يحترق وتموء بأعلى صوتها، ولا أدري كيف رحت أصرخ مع أختي وفاء.. وحتى هذه اللحظة يلاحقني منظر القطة في صحوي وفي نومي.

ذاكرتي لم تعد تختزن الأحداث فقط، صارت تختزن صفعات أبي أيضاً.

***

١٨

توالت الأيام، وأمسى أخي صابر خادم خالتي المطيع.. تصب غضبها عليه وتدعوه "الكلب الأعور".. وحين يلتجئ لغرفته يضرب رأسه بالجدار، ويهدّد خالتي ويتوعّدها أن يصب ماء النار على وجهها إذا بقيت تعيّره بعاهته، لكن تهديداته لم تتجاوز حدود غرفتنا خوفاً من سطوة أبي.. وكثيراً ما رأيته يخفي نقوداً في جيب سري أو في جواربه، وعندما اتهمته بسرقة أبي، قال بلا مبالاة إنه لم يسرق أحداً، وإنما يخفى مبلغاً صغيراً من ثمن

كل غرض يبتاعه لخالتي.. ويضيف بتهكم "اسرق البخيل ولا تطلبه".

أما أخي محمود، فقد ركن إلى سجنه وشيخوخته المبكّرة في هذه المدينة الخليجية.. كان يعود من عمله مرهقاً، يلقي بجسده على سريره، يتأوّه، سجين في غرفة مثل زنزانة لا يجدي فيها الصراخ ولا الطرق على الجدران.. لا صوت يُسمع، ولا صدى يرجع.. لا شيء غير الفراغ الخانق.. لم يعرف اسماً لذلك الكابوس المركّب من التردّد والقلق والإحساس بالغربة والوحشة العميقة.. وخالتي تردد على مسامعه أن نجوم السماء أقرب إليه من أن يشارك أولادها في إرث أبيهم.. أشعرته بالفارق بينه وبين ابنها أيمن، كان أيمن نجمة الصبح في نظرها، تخاف عليه من نظراتنا ومن أنفاسنا.. انتهت خالتي بتسمية أخي محمود بالمسعور، وانتهى والدي إلى تسميته بالحيوان.. بدت له الحياة بعد معركة كلامية مع خالتي تلك الليلة مثل عدو يتربص به، مطرقة تطرق على صدغيه.. ظل على السرير فاغراً فاه كطفل استمع لتوه إلى قصة رعب.. خرج بعدها إلى المطبخ، أغلق الباب وراءه وغرق في ظلمات الصمت والتيه والفراغ.

تغيّر أخي محمود فعلاً.. صار الليل رفيقه، يغيب عن البيت خفية عن عيون أبي وخالتي، ويقول بتذمر بعد أن يعود "إن سواد الليل أرحم من بياض النهار".. أرخى لشعر لحيته العنان، والتجأ

إلى الله.. صار يصلي كل الفروض، ويقضي ليله في المسجد.. لم يصدق والدي عبادته واستسلامه لله.. كان يعنفه دائماً ويحقّره في البيت وفي العمل.. وفي الليل يغلق باب الحوش الكبير ويمنعه من الخروج، لكن محمود لا يعجز أن يجد طريقة ما ليتسلل خارج البيت ليلاً.. وفي أنصاف الليالي وبعد عودته خفية أيضاً، يرقد مستلقياً على ظهره أمام باب الغرفة.. ينظر إلى السماء والنجوم ويسرح عبر أحلامه.. نثر صور حنظلة وعلّقها على جدران الغرفة.. كان يتأملها كعابد متصوف.. صار حنظلة بالنسبة إليه ظمأ واختناقاً أقرب إلى حبل وريده.. يتذكّر عمي علي ويتمعن الكاريكاتير، ويبكي غربته، ثم يقوم يتوضأ ويصلي قيام الليل، يلتجئ إلى الله في أعسر أوقاته، حتى صارت العبادة طقس من طقوسه الليلية.

كثيراً ما حاولت الوصول إلى أعماقه، لكن أعماقه كانت بئراً عميقاً لم استطع الولوج إليها أو اختراقها.. ذكرياته باتت ملكاً له، وما عاد يبوح بما في صدره.. يباغته الفجر أحياناً وهو منكمش مثل حيوان محاصر، يستيقظ متعرّقاً في كتلة الأحلام التي لا يستطيع تذكرها.. يتوضأ ويصلي ويفوّض أمره إلى الله، ويقول بأن في رأسه صراخ أخرس مثل قنابل تنفجر في صدره بين وقت وآخر، تتركه بلا هواء.. ومع ذلك يتشبّث بصخرته حتى لا يسقط.. قلت له بأن يرفس القاع ويصعد إلى السطح من جديد..

قال بلا جهد ولا تفكير بأن "الأزمات مفيدة، والمعاناة تدفع الإنسان لتثبيت قدميه على وجه الأرض أكثر فأكثر".

ذات ليلة، حاول النهوض من فراشه، لم يستطع تحريك ذراعيه، انطوى وسقط على ركبتيه.. قال إنه يحس برمح يخترقه من جانب إلى آخر.. بدا محطماً على الأرض.. فتحت النافذة ورحت أبحث عن هواء نقي.. كان قرْع طبل يملأ صدغيّ، وقسم صغير في دماغي يسجل ما يحدث.. تذكّرت أبي، ركضتُ نحوه، توقّفت عند الباب، لم أستطع الاقتراب أكثر من خطوات، لم يخرج صوتي، أحسستُ بالخرس، انكمشت مثل مولود حديث، اجتاحتني انتفاضة من الأعماق، ورحت أتذكر عما أعرفه عن النوبة القلبية.

همس أخي "لا تخافي، الله معنا، نوبة انفعال تعودّتُ عليها، أعطني شربة ماء فقط".. أسرعت بكأس الماء، تجرّعه على دفعات.. بعد لحظة، تناول رغيفاً وراح يقضمه.. أحسستُ أنه يلوك طعامه بضجيج، وكأنه يضرس حصى.

في الليل وأثناء انفعاله، تحامل على نفسه، نهض من فراشة وراح يتمشى في حوش الدار.. يسبّح ويدعو الله في سره، كانت آهاته تُسمع من خلف الجدران، وخالتي تُسكت أولادها كي تسمعه بوضوح.. تسير على أصابع قدميها وتراقبه، تتراخى أجفانها وتصيخ السمع، ومحمود يتجاهل مراقبتها الدائمة ونظراتها

المتلصصة.. تغيّر أخي فعلاً، ارتدى ثياباً جديدة بعد أن رمى ثيابه وأقنعته القديمة منذ قدومه إلى هذه البلاد.. كانت خالتي تتربّص لأخي أثناء نوم أبي، وحين يصحو والدي، كانت تتنفس تنفساً عميقاً وتفرك عينيها بظاهر راحتيها.. تتظاهر باليقظة والإنصات إليه وتقول "أنت نائم ومرتاح وبتشخّر، وأنا طول الليل سهرانة من أجل الأولاد، وكأنهم أولادي وحدي!".

تلك الليلة، غرق أخي في أعضاء جسده عضواً عضواً، حرّك كل عضلاته قبل أن يستلقي على سريره.. قال إن وجعاً غامضاً ينهش عظامه.. حاول أن يزيل جميع التوترات التي تراكمت في بدنه، ليجعل قلبه ينبض نبضاً هادئاً.. حاول أن يفرغ دماغه من أفكاره.. حلّق بنظره في الأشياء داخل الغرفة الباهتة.. نظر إليها نظرة إنسان معتوه مسكون بالحزن، وبلا سبب واضح أصبح وجهه كئيباً، تلوّى داخل ملابسه وتسلل خارج البيت.

من خلف زجاج النافذة، شاهدته يقف تحت عمود النور ويشعل سيجارة، بدا كشاعر خرج يبحث عن الإلهام، عكس الإسفلت أضواء السيارات المارة.. كانت المياه المنسكبة من المواسير الصدئة تملأ الشارع، وتحولت الأضواء إلى لون أصفر مموّج ومكسور.. أضواء زائفة، أشلاء أفكار تموّجت في رأسي.. رأيتُ جسمه نحيلاً كالخيال.. رجل باهت المعالم بلحية كثة طويلة يقف يدخن ولا ينبس ببنت شفة.. ظِلٌّ غريب في مكان ناءٍ، شبح حضر لتوّه من المقبرة في ساعة حالكة الظلام ومتأخرة.. تحوّلت

عواطفي المكبوتة إلى ورم خبيث وأنا أشاهد خالتي تراقب أخي أيضاً.. أحسستُ بانفجار في أعماقي، ولم أدر ماذا أفعل!.

خالتي لم تعجز أن تخبر والدي بما تشاهد.. ضاعت منها الكلمات وأيقظت والدي على عجل ليرى ولده محمود بأم عينيه.. انفلت المارد المسجون في أعماقها.. سمعتها تقول بأن "محمود أفسد الأسرة، ولولا أن طفح الكيل لبقيتُ خرساء وعمياء.. قوم شوف ابنك المستشيخ، يدخن في الشارع، وعندما تسأله عن التدخين، يقول حرام، أو تسأله وين كنت، يقول في الجامع".. صوتها علا فوق صوت أبي.. انتشرت في الجو نذر عاصفة، وثب أبي يحمل هراوة في يده وأنطلق خارج البيت.. تحت عمود الكهرباء دارت الدماء والصخب والهراوة والصراخ والأنين دورة كاملة في رأسي.. هبّت أختي وفاء من نومها مذعورة.. تعالا صراخ أختي الصغيرة أيضاً من الغرفة الثانية.. كانت الدماء تنزف من رأس أخي ووالدي يجرّه من لحيته ومن شعر رأسه إلى الداخل، ويلقي به على أرضية الحوش.. لم يقاوم أخي ولم يبد أي ردود فعل، ظل صامتاً طوال الوقت ولم ينبس ببنت شفه.. انهال أبي عليه ضرباً، بصق عليه ورشقه بعبارات مهينة تخدش الحياء وكلمات سوقية.. اندفعتُ إلى قدميه صارخة، رجوته أن يعفو عنه.. انقضّ على شعري فجأة، سحبني وجرّني على الأرض بعنف وغيظ داخل الغرفة كما لو أنني حيوان شارد، صرخت "أنت لست أبي".. لطمني لكمة قوية أطاحت بي ثانية

على الأرض وقال "حتى أنت يا بنت الكلبة"، وقذف بقدح زجاجي على وجهي، هشّم جبهتي وجرحني.. صرخت خالتي أيضاً، دفعها بعنف، قفز عن السرير ولكمني على وجهي ثانية، نفرت الدماء من أنفي مثل شلال، لفّ شعري بين أصابعه وبدأ يضرب رأسي بالحائط.. راح صراخ أختي وفاء يدوّي في رأسي، وصابر ملقى على الأرض والدماء تنزف من وجهه، أحضر بنزيناً وصبّه عليّ وعلى وفاء وصابر ليحرقنا، دفعته خالتي خارج الغرفة وشتمتنا.. شحنت بكلماتها والدي من جديد، أعطته دفقة جديدة وثقة أكبر في نفسه بعد أن أنهكه التعب.. زفر وارتعد وقال "موتكم سيكون على يدي يا أولاد الحرام".

قيّد والدي قدميّ أخي محمود بحبل تلك الليلة، وكبّل يديه وراء ظهره وقصّ شعر لحيته، وتركه في برد الصحراء حتى الصباح.

أسرعتُ مع بزوغ الشمس وحاولت فك قيده، أسرع والدي وركلني بقدمه ومنعني من الاقتراب منه، ومع أن الجو كان حاراً والشمس محرقة عند الظهيرة، إلا أن أخي لم يشك ولم يتألم، فقط رغب في جرعة ماء يرطّب بها شفتيه، ومع ذلك رفض والدي طلبه، وعندما طلب أن يبول، قال له "افعلها في بنطلونك يا حيوان"، وكأنما فقد والدي صوابه.

رجته خالتي أكثر من مرة أن يصفح عن أخي ويحل قيده، لكن والدي تشبّث برأيه ولم يتزحزح قيد أنمله عن قراره، وظلّ أخي

على حاله يتمرّغ في التراب ويغرز أسنانه في شفته السفلى حتى المساء، ولم يصفح والدي عنه ويحل قيده إلا بعد أن أقسم له أنه لن يدخّن ثانية، ولن يغادر البيت ليلاً دون إذنه.

في أواخر الليل، وفي داخل الغرفة، امتزجت صرخات العذاب والألم بالخشوع، وردّد محمود بصوت مسموع "لا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، حسبي الله ونعم الوكيل".. ثم قام توضأ وصلى مفوّضاً أمره إلى الله.. وأقسم صابر أن يقتل "هذا الرجل" عاجلاً أم آجلاً، وراح ينتظر فرصة بفارغ الصبر.

***

١٩

قاربت الساعة من الرابعة بعد الظهر، ولم تهب نسمة هواء.. تعطلت المكيّفات منذ صلاة الظهر بسبب انقطاع الكهرباء في مدينة الدمام، وتجاوزت درجة الحرارة الخمسين درجة.. كُتل من الغيوم السوداء المشبّعة برائحة النفط تطارد بعضها بعضاً في السماء، والرجال يتسابقون إلى سياراتهم الفارهة ذات المكيفات، يحملون أسرهم ويدورون في الشوارع، أو يتسابقون نحو مياه

الخليج أو شاطئ نصف القمر في محاولة لاتقاء حرارة الجو.. مياه الحنفيات تغلي في المواسير المعدنية أيضاً.. بللتُ المنشفة بالماء ووضعتها على رأسي.. كانت خالتي نائمة فاغرة الفم قرب باب غرفة نومها، وأخي أيمن يغفو على ثديها، والذباب يرضع من نداوة شدقها المظلم.. اقشعر بدني، تصوّرت أن الذباب يخرج من الشدق الأسود.. أحسّت خالتي بوجودي قربها، رفعتْ رأسها ونظرت إليّ، بقيتُ واقفة في مكاني أتأمل أخي أيمن.. صرّ الباب الخارجي وفُتح.. فجأة انقضّت على وجهها باللطم كما تفعل النائحات، لطّخ احمرار الدم جفنيها وجبينها وخدّيها، بدت وكأنها تخضّبت بالحناء، وحين صرختْ بدا وكأن وجهها مجرّحاً، وإنها إنما تصرخ من فرط الألم.

شعرتُ أني أعوم فوق بركة من الدماء، ورائحة العفونة تملأ المكان.. اندفعت أختي وفاء نحو الصوت، وقفت خالتي مثل قطة تأهّبت لاصطياد فريسة، نظرتْ إلى الخارج، لم تر أبي، جالت بعينيها أرجاء المكان، خاب ظنها عندما شاهدت أخي صابر عائداً من الخارج.. للمرة الأولى أنظر إليها وجهاً لوجه وأحدّثها بعينيّ.. عرفتْ معنى نظراتي المتشفية.. تغيّر لونها وبدا وجهها شاحباً، توعّدتني بعينيها وبنظراتها وبكل ملامح وجهها، وطلبت مني الانصراف وعدم الاقتراب من غرفتها.

عند المساء وقبل عودة والدي بقليل، نفلت شعرها ومزّقت ثوبها، لطمت ثدييها المكتنزين وخرمشت وجهها بأظافرها، ومزجت بصرخاتها عوالم الفجيعة في البيت.

تطايرت ذرات الرمل التي حملتها العاصفة في الفضاء، ثم رست على الأرض وعلى أثاث البيت، على الوجوه وعلى مسامع والدي.. تقوقع والدي وبدا كأنه وقع في مصيبة.. زمجرت الزوبعة من جديد.. حملت معها بقايا الثياب المغسولة والمنشورة، وصيحات خالتي وهي تلطم وجهها وتضرب صدرها، وتصرخ "أنا لم أعد أطيق هذه الحياة.. إما أن يكون البيت لي ولأولادي أو لبناتك".

هادئاً كان أبي تلك اللحظة وخالتي تقف أمامه، كتم غيظه على غير عادته وجلس على السرير وبدأ ينزع حذاءه.. تذكّرت وأنا أقف على مقربة منه كيف كان ينقضّ على أمي كالجرّافة، وكيف يغدو جسدها سندياناً لمطرقته في لمح البصر.

انحنى والدي بجسمه لينزع جواربه.. أمسكت يداه بحزام البنطال، وكأنه يريد أن يشهر خنجراً.. تعرف خالتي تماماً نقطة ضعفه.. شدّت على أسنانها بغضب وغمغمت في نفسها بكلمات غير مفهومة، لاحظتُ أن نظراتها تعلّقت في حزام بنطاله.. وعندما جلست بجانبه، تأوّهت وأطبقت على شفتها السفلى بقوة، ولمّحت له علانية بأن ينفذ ما تريده وما ينبغي عمله.. وكأنه

فوجئ بوجودي في الغرفة واقفة، فقال بغضب "أنتِ ما زلت هنا يا بنت الكلبة!، انصرفي وحسابك معي بعدين".

هلّلت خالتي في أعماقها وابتسمت بعد أن أيقنت أنه أصبح مثل العجينة بين يديها.. وفي الخارج كنت متأكدة أن عقلها لم يغرق في سبات عميق، وأن والدي استوعب وسجّل ما يدور في ذهنها قبل أن تتراخى بين يديه، وتسلّم له جسدها كقطعة من القماش الحريري.

***

٢٠

تحولّتُ ووفاء إلى جاريتين عند خالتي، ووالدي لم يأل يسمعنا بأن "البنات مصيبة، والبنات همّ للممات"، ويضيف أنه سيحرق قلب أمنا علينا، ولن ترانا طالما فيه نَفَس وروح.

كنت أنتظر الأمان في كنف خالتي، ولا أدري كيف تحوّلت هذه المرأة بعد وصولنا إليها إلى عاصفة، أشعرتنا أننا حمولة زائدة في بيتها ويجب التخلص منها.. فرّقت بيننا وبين أولادها،

وأشعرتنا أننا أخوة أعداء.. أشعرتني أني أنثى خطأ، أنثى أضاعت طريقها، وإنه يوجد خطأ حيث أكون.

كانت وفاء تنظف وتنظف دون انقطاع، تدخل وتخرج باستمرار إلى الغرفة والمطبخ والحمام، ثم إلى المطبخ من جديد.

سيطر القلق عليها بقوة، اجتاحتها نوبة من السعال والكآبة واليأس، اعتلتها قشعريرة مفاجئة، راحت تبكي كأني لست شريكتها في الغرفة، ولا وجود لي في حياتها، نظرت إلى وجهي ثم أخفت دموعها بكفيها، نسيت القهوة على النار، وشردت بعيداً.. فاحت رائحة القهوة، فارت على الغاز وأطفأت لهيبه.. وعندما تنبهت إلى ذلك الصوت المخيف، أسرعت وأغلقت الغاز.. بدت كالمجنونة، راحت تنظر إلى الجميع بخوف، وتمضي في صمتها وحزنها، تقوم وتجلس على الفراش وتبكي، وبلغ بها الأمر أن راحت تنتف شعرها، وتلقي به على الأرض كأنه شعر من إنسان ميت.

قامت وغسلت وجهها بماء الحنفية البارد.. ازرقّت أصابعها من البرد وتجمّدت أذناها، استلقت على الفراش وطلبت أن أدفئها، قالت "أشعلي ناراً واحرقيني".. بعد لحظة قالت إنها عطشانة، أسرعتُ إلى الزير وعدتُ أحمل كأساً من الماء، تجرّعت جرعة واحدة ثم أحنت رأسها إلى الوراء، خانتها قوتها وأبعدت الكأس، بدا الضيق واضحاً في عينيها، تناثرت قطرات من الماء على شفتيها وعلى ذقنها، مسحت بيدها وجهها الرقيق وأرخت رأسها

على الوسادة، ولم تستطع تحريك عضلات وجهها.. كورقة خريفية متساقطة ذبلت وفاء فجأة.. أصبح لونها لون الصدأ، وغرقتْ في سبات غفوة قصيرة.. بعد دقائق فتحت عينيها وراحت تحدّق في فضاء الغرفة، قفزت دموعها فجأة وتناثرت على جانبي وجهها، ضممتها إلى صدري، سوّرتني بذراعيها، وغرقتُ معها في بحر من الدموع.

***

بعد منتصف الليل داهمني وجع جواني وحوّلني إلى قطعة قماش بالية.. استنجدتُ بإغفاءة قصيرة، تمنيتُ أن أغفو دقيقة واحدة، حلّقت طيور سوداء جارحة فوق رأسي، أحسستُ بدود ينغل في جسدي، ويمخر في كريات دمي الحمراء والبيضاء أيضاً.. التجأت إلى مذياع صغير كان أخي محمود قد أحضره منذ زمن.. دارت أصابعي بالمفتاح، استوقفني صوت محمد عبد الوهاب في أغنية قديمة..

"الصبر والإيمان، دول جنة المظلوم"..

تساءلت: "جنة المظلوم في الدنيا أم في الآخرة"..

عاد الصوت من جديد بعد نوتة موسيقية..

"افتكري يا جدران، يا أوفى من الإنسان..

صوتي مع الأذان، حيقول في كل أوان ..

يا ظالم لك يوم، مهما طال اليوم"..

وكأني لم أبكِ من قبل، شعرت بأحزان العالم تكبّلني، وراحت دموعي تهطل كالمطر.

كبرتُ تلك الليلة أعواماً عديدة، وعبد الوهاب يردد "الصبر والإيمان، دول جنة المظلوم"..

مظلومة يا ناس، والله مظلومة.. وددّتُ لو أصرخ بأعلى صوتي، لتردّد أصداء صوتي الصحراء والبيوت والجبال والوديان والسهول والهضاب والسحب والسماء والفراغ.

أخفيت رأسي تحت الوسادة.. راحت الأفكار تتسارع من جديد وتتحول إلى صور.. تلاحقت الكوابيس، شعرتُ أني أهوي من جبل عالٍ إلى واد سحيق.. فقدتُ القدرة على السيطرة، وغبت في سبات نوم عميق.

***

٢١

اقتحم والدي خلوتي فجأة، دخل باشاً متفتّح الأسارير على غير عادته.. وحيدة كنت في غرفتي تلك الليلة غارقة في أحلامي، ارتجفتُ وشعرت بقشعريرة تجتاح جسدي، أوجستُ خيفة من وراء هذه الزيارة المفاجئة، وتساءلت في سريرتي "ماذا فعلتُ، وأي ذنب اقترفت**!**، وهل والدي يحتاج إلى أسباب ليعاقبني**!**".. تجمّدتْ عروقي وهيأت نفسي لصفعاته.. ابتسم وقال

"لا تخافي"، ثم راح يتحدّث عن زمن مضى، وأطنب في اعتذاره عما فعله معي.. كنت مشدوهة، مندهشة، ولم أصدق كلمة مما قال، بل لم أسمع كلمة واحدة من حديثة الذي طال لعدة دقائق.

بعد أن دبّج كلماته، ابتسم ثانية في وجهي وقال:

- لسنوات طويلة وأنا أفكّر أي عرس أختاره لك.. كنت أتمنى أن أقيم لك حفلة يتحدث عنها كل من يعرفنا ولا يعرفنا..

تساءلتُ ثانية في أعماقي "هل أبي جُنّ أم ثاب إلى رشده!"..
تابع وأنا صامتة أستمع ولا أصدّق..

- أنتِ السند الذي أعتمد عليه.. لا تخذليني، فأنت كنت دائماً أماً لأخوتك.

آه، هذا هو لبّ الموضوع، حدثتُ نفسي، إنه يلفظ كلمة "أم".. كيف يتذكّر هذه الكلمة، وأي نوع من الأمهات يقصد؟، أمي أم أمه.. لا، لا، أكيد هو يقصد أمي.. عاد الجرح ينزف من جديد.. أيّ غضب سيحل على جسدي بعد لحظات!، تصرفاته مع أمي لم أنسها بعد، أنا على يقين إني ابنته، هو يعرف ذلك حق المعرفة، لكنه يكابر.. كذب على نفسه وصدّق كذبته.. نعت أمي بالزنا وصدّق أنها زانية.. بماذا يفكّر والدي بالضبط؟!.. تابع:

- أعرف أنك عشتِ كاليتيمة..

عقلي رفض سماع أبي.. بقيت صامتة..

- قولي شيئاً.. تحدثي معي يا جهاد.

حتى كلمة "ابنتي" استكثرها عليّ، لم يقلها، قال "جهاد" وكأنه يعرف جهادي على هذه الأرض.. انبلجت دمعة وقفزت خارج عيني.. نظرتُ إلى الأرض وحاولتُ إخفاءها حتى لا تفضحني أمام نظراته.

- نهاية البنت في بيت أبيها الزواج.. ستتزوجين يا جهاد.

أخيراً ألقى بقنبلته في وجهي، اغرورقت عيناي بالدموع، غشاوة، عشا ليلي أصاب عينيّ.. قلت:

- ما عاد للحياة طعم أو معنى.. الزواج أو عدمه، لا فرق.
- كيف لا فرق، إنه مهم جداً.. العريس يحمل جنسية إحدى دول الخليج، وأنتِ ستحصلين على التابعية بعد الزواج.. وبالتالي يساعدني في الحصول على إقامة دائمة في بلده.. فكّري بأخوتك، سيحصلون على الإقامة الدائمة أيضاً.

لم يتخلّ والدي عن أنانيته، دائماً يفكّر في مصلحته فقط.. سرحت عبر أفكاري، تذكرتُ حكاية المرأة التي كانت تحمل الثلج على رأسها تحت وهج الشمس.. الناس يرتوون، وهي تظل عطشانة.

ما زال أبي بعيداً عن قلبي، تفصلنا ضفتي نهر وصحراء شاسعة.. فجأة تداعى كل شيء في أعماقي، وأحسستُ أني أهوي من جبل شاهق إلى أرض صخرية.. قلت: افعل بي ما تشاء.

تلك الليلة تربّع الخريف في صدري، مشى مع سنوات عمري، ملأ حقائبي بالمواويل الحزينة، وكمن في أعماقي مثل امرأة عاقر.. توالد السراب من جديد.. السراب لا يلد غير السراب.. "حدثتُ نفسي" لا شيء بلا ثمن في هذه الحياة .. أن يتمتّع المرء بشيء فلا بد أن يدفع ثمناً مقابل ذلك.. هذا دَيْن، وعلى المرء أن يُسددّ دَيْنه من فاتورة عمره.

***

٢٢

ذات مساء حزين، ألبستني خالتي فستان فرح زهري اللون، وأجلستني على مقعد مرتفع وزغردت.. اندفع رجل بثوب أبيض وطوّقني بقيوده الذهبية.. سلسال في رقبتي، سوار في معصمي، خاتم في بنصري، قيود صفراء، لا أدري لمَ أحسستُ أني مثل كلبة تحيط بها القيود الحديدية الصدئة من كل جانب.. جلس

بجانبي لعدة دقائق وخالتي تزغرد، ثم قام وانصرف يجر عباءته السوداء خلفه مثل ذيل طاووس.

لم يظهر أخي محمود تلك الليلة، وبعد منتصف الليل تواردت الأخبار عن شهود عيان أخبروا والدي عن حادث اصطدام سيارته التي كان يقودها محمود بسيارة أخرى تقل ثلاثة أشخاص من أفراد أسرة واحدة، فقدوا حياتهم على الفور.

لم يتم الفرح.. الأفراح العربية دائماً ناقصة.. ركعت الشمس وانكسرت في طقوس الاحتضار، مدّت أشعة نحاسية حزينة فوق الأرض، وبدأت تختنق خلف الجبال والصحراء والبحار البعيدة، وبدت مثلي تلفظ أنفاسها الأخيرة.

سادت العتمة في البيت كما في نفسي، هرع والدي مع عريس الغفلة إلى المستشفى حيث نُقل محمود أثر إصابته بجروح بليغة، تحوّل الفرسان إلى أشباح وخفافيش ليلية راحت تطارد بعضها داخل حجرات قلبي.. ضرب والدي كفاً بكف وتمنى لو مات محمود في الحادث، فقد حطم سيارته، وخرّب بيته "كما قال".

صباح اليوم التالي، قمت بزيارة محمود في المستشفى، كان بحالة أفضل رغم الجروح الظاهرة على وجهه وفي ذراعه.. وعندما عدت إلى البيت شاهدت وفاء تذرف دموعها وتلاحق التلفاز بعينيها.. قلت: طالما أخوك بخير، فلماذا هذه الدموع!.

قالت: إذا كان أخي بخير، فهل تعتقدين أن كل الناس بخير!.. الموت مع الجماعة رحمة يا جهاد، تعالي وشاهدي الدموع الحقيقية.

كان التلفاز يبث مشاهد المقاتلين وهم يغادرون بيروت، جلست ووفاء نتابع المشاهد.. كان القتال قد توقف بعد أن حاصروا بيروت أكثر من ثمانين يوماً، لم يتوقف خلالها القصف من الجو والبر والبحر.. وحيدة وقفت بيروت تصد المهاجمين.. صمد الشهداء ورحل الأحياء.. كانت مناظرهم وهم يتجهون إلى ميناء بيروت بزيهم العسكري الموحّد وأسلحتهم الخفيفة تبعث الدمار في النفس، والنساء يزغردن ويبكين في آن.. تذكرت عمي الشهيد علي، لقد صمد ولم يرحل مع الراحلين.. امتزجت دموعي وأنا أشاهدهم يرحلون بباقات الزهور والأرز ووداع المنافي، قلت لوفاء "من يرى مصيبة غيره تهون مصيبته"، فقالت دون تكلف "كلنا نعيش في المنافي، ولا بد للغريب أن يعود إلى وطنه، بيروت لم تكن يوماً ما مدينتهم، وأخطأ كل من اعتقد أن جنوب لبنان هو طريقهم إلى فلسطين".

كنت أتابع المشاهد وأحدث نفسي عما رأيته من جمال بيروت على التلفاز.. كانت تتراءى لي كالعروس تستحم في البحر كل صباح، ومع الشمس عند كل مغيب.. أما هذا اليوم فقد رأيت العروس مستباحة والمدينة كومة من الأحجار المدمرة، وكأن

زلزالاً أصابها.. بقي عمي الشهيد وحده في بيروت شاهداً على ما حدث.. أحداث بيروت وحادثة أخي طغتا على خطوبتي.. أنا وأخي وأختي والمقاتلون وبيروت سيان.. كلٌّ يذهب إلى صومعته، إلى سجنه أو قمقمه أو قوقعته.. الكل يتشبّث بصخرته، وأنا أتشبّث بصخرتي.. متاهة من الأحداث راحت ترقد في غضب مكتوم فوق صدري.. مزاريب صفيح ناتئة وصدئة، أنقاض جدران بلا بيوت.. حصار، جوع، قتل، متاهة أعراب في ناطحات السحاب، مساحات من أكوام الزبالة.. عبث، سراب يتوالد مع السراب، ونفسي تفيض بالأوجاع والحزن والدموع.

***

٢٣

بعد ظهر البارحة عاد والدي من عمله باكراً على غير عادته، أسرعتُ وشقيقتي وفاء وأخي صابر وانحشرنا في كهفنا.. ألقى نظرة علينا وولج غرفة خالتي.

أشعرنا أبي بفارق الحياة في ظل زوجته وأولادها، كنا أخوة أعداء في بيت واحد، وتمنيت بدافع الهروب من هذا البيت عودة صاحب الدشداشة البيضاء ليأخذني بعيداً عن هذا الدمار.

عند المساء طرق أحدهم الباب.. استقبله أبي بابتسامة عريضة ورافقه إلى غرفة الاستقبال.. خمّنت أنه من العمال الذين يعملون معه.. تحدثا في البداية وهما يلعبان ورق الشدة عن العمل وعن الحياة الأسرية وعن همومهما في الحياة.. لم تحجب الجدران الصوت عن سمعي، وسمعتُ والدي يقول:

- أنت أخبرتني قبل عدة أيام أنك طلّقت زوجتك منذ أكثر من عام، فلماذا لا تتزوج غيرها!؟.
- الأولاد! أنا قادر أصرف على الأولاد!؟ لما أقدر أتزوج!.
قال الرجل.
- وكم ولد عندك الله يخلّي لك إياهم؟.
- ثلاثة أولاد وبنت، الله يحفظ عيالك.. أصغرهم في عامه الرابع، يعيشون في كنف أمهم في الموصل.
- الله يرزق الجميع، لكن الغربة صعبة، ولا يستر الرجل غير زوجة صالحة.
- والله النية موجودة، لكن أنت تعرف القوانين.. الحكومة تمنع العمال الأجانب من إحضار زوجاتهم وأولادهم.. ومتى يأتي النصيب، الله أعلم!.
- أنت انوي على الزواج، وراح تلاقي ألف عروس في هذا البلد.

- ومن هذا المغترب الذي يقبل أن يزوّج ابنته لرجل كردي، متزوج ومطلّق وعنده أربعة أولاد!.

قال ذلك بسخرية وابتسامة خلتها واضحة على ملامح وجهه..

- يوجد الكثير منهم، والبنات أكثر من الهمّ على القلب.
- دلني على واحدة تحمل إقامة، وساعدني.. هذا معروف لن أنساه لك طول عمري.

تشعب حديثهما وطال.. تشاغلتُ ووفاء في الحديث عن الماضي والحاضر، وعن صاحب الدشداشة الذي خطبني ولم أره منذ أكثر من شهر بحجة متابعة أعماله في الخارج.. ولم أعد أسمع ما يتحدث به والدي مع ضيفه.

بعد أكثر من ساعة فتح والدي باب غرفتنا وقال بلا مقدمات:

- تعالي يا وفاء إلى غرفة خالتك، أريد محادثتك في موضوع خاص.

ارتبكت وفاء وأخذت ترتعش.. قالت إنها خائفة وطلبت مني أن أرافقها، وقبل أن نلج غرفة خالتي سمعته يقول لها:

- ألبسيها ثياباً جميلة، وأدخليها إلينا مع فنجاني قهوة ليراها الرجل.

أختي وفاء هادئة مسالمة مثل قطة صغيرة.. عمرها لم يتجاوز السابعة عشر بعد، مرهفة الحس دقيقة الشعور، تنهمر دموعها لأدنى إحساس بأنها قد أهينت أو خدش شعورها.. بشرتها حنطية اللون نقية وصافية، وعيناها عسليتان رائعتا الجمال، تسبح نظراتهما دائماً في أفق ممتلئ بالحزن العميق.. يحسّ المرء نحوها بالرغبة لأن يلقى عليها الحماية دائماً، ودائماً تبدو منكمشة على نفسها قليلة الكلام، كثيرة الخجل، وتبدو أمام الآخرين مرتعبة دوماً، خوفاً وخجلاً.

اندفعتُ إلى المطبخ خلف خالتي، كانت ترتّب فناجين القهوة.. قلت بتحدّ:

- لقد باعني أبي لرجل خليجي لم أرَ وجهه بعد.. وهل سيبيع أختي لواحد كردي!.
- هس هس، اخفضي صوتك. قالت خالتي.

تلك اللحظة بكت وفاء، وألقت برأسها على صدري وقالت:

- إنها مشيئة الله.. وقرأت "قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا".. ثم همست في أذني "أليست الحياة مع أي رجل أفضل من الحياة في هذا البيت!"، ثم مسحت دموعها وقامت تحمل القهوة إلى الرجل.

بعد دقيقة عادت، ولم تنطق بحرف.

في الغرفة أغرقت ثيابها بالدموع، وأخي صابر واجم لا ينطق بكلمة.. فجأة اندفع إلى المطبخ وعاد يحمل بيده سكيناً وقال:

- سأقتله، والله لأذبحه مع زوجته وأولاده هذه الليلة.

صرختُ في وجهه: هل جُننت يا صابر!؟.

- وهل تصرفات أبوكِ تصرفات رجل عاقل!؟. رد بانفعال.
- هات السكين ولا تتدخل فيما لا يعنيك.

ومع أن أخي صابر بقي ثائراً لدقائق، إلا أنني استطعت ملاطفته وأخذ السكين من يده، ومع ذلك لم يهدأ إلا بعد أن فُتح الباب ثانية، ووقف أبي كالمارد قائلاً:

- يا وفاء.. هذا الرجل طلبك مني، وأنا قبلت.. وقد ذهب ليأتي بمن يعقد القران، فاستعدي حتى يعود مع الشهود.

صعقنا والدي بكلماته.. صاعق كهربائي بثلاثة فاز مرّره على رقابنا، وصفع الباب خلفه.. وقفت وفاء كالبلهاء فاغرة الفم، ولم تدرِ ما تقول.. جلس صابر على السرير يرتجف، وراحت الأصوات في غرفة خالتي ترتفع وتنخفض مثل شلال مدمّر سقط فجأة على منحدرات جبلية.

- ماذا سيقول عنك الناس والجيران والأقارب!. قالت خالتي.
- ليقولوا ما يشاؤون، بناتي وأنا حر بتصرفاتي. أجاب أبي.

- لكن وفاء طلبها ابن عمها.
- أنا أعلم بمصلحتها، ولا أريد أن يتزوجها أي شخص له علاقة بالعائلة.
- أنا لا أعرف سبباً لتصرفاتك.
- إذا تزوجها أحد أقاربها فستراها أمها يوماً.. لكني سأحرق قلب أمها، ولن ترى بناتها ما حييت.
- لكنها أم أولادك شئت أم أبيت.
- لكني لست أباهم.

سادت لحظة صمت، علا صوت خالتي من جديد:

- والله إنك ظالم، ولا تخاف الله، ومش بعيد بكره تتهمني مثلها.

خفت الصوت من جديد، ولم أسمع جواباً من أبي.. بعد لحظة رأيته يخرج ويتجه إلى غرفة الضيوف.

كانت الساعة تقترب من العاشرة ليلاً عندما طرق الرجل الباب ثانية.. دخل ومعه ثلاثة رجال بلحى طويلة.

قال والدي إنه وكيل ابنته وفاء، وإنه قبض المهر المعجّل، وهي راضية بهذا الزوج.. وشهد الرجلان على عقد الزواج.

وثّق الشيخ ما سمع في دفتر كبير كان يحمله بين يديه، وسمعتهم يقرؤون الفاتحة، ويباركون للعريس بزواجه.. ثم خرج الرجال بينما بقي والدي مع الرجل الكردي الذي لم نعرف له اسماً حتى تلك اللحظة.

***

تسارعت الأحداث مثل حلم رهيب.. انتقل المشهد وتغيّر المنظر.. أحداث جرت بلا ترتيب، وتحركت بسرعة هائلة ومتناهية.. الطيور السوداء عادت من جديد.. كنت في الحلم هذه المرة.. أختي وفاء بطلة الفيلم.. الطيور السوداء كانت تلاحقها، تنهش لحمها وتمزق ثيابها، تجرحها، تغرق في دموعها، وديدان ذات أسنان حادة، تأكل جسدها وهي على قيد الحياة.

للمرة الثالثة يفاجئنا أبي بغرائبه:

- تعالوا إلى غرفة خالتكم.

مثل الكلاب الضعيفة الجائعة تبعناه، ولم يتكلم أحدنا مع الآخر.

- أنتم أولادي..

وأخيراً نطقها أبي، قال نحن أولاده.. "قلت في قرار نفسي" إذن لماذا هذا العذاب يا أبي!.. لجم والدي أفكاري المسترسلة وأضاف:

- أنتم أولادي وأنا أعرف مصلحتكم.. لا تخافوا، افرحوا، هذه الليلة ليلة فرح.. ستزف وفاء إلى عريسها هذه الليلة.. أريدكم أن تكونوا كباراً وتفهموا الحياة، أنتم لم تعودوا صغاراً.. وأنتِ يا أم أيمن "وأشار إلى خالتي" أحضري أفضل قميص نوم من خزانتك، وأعطه لوفاء هذه الليلة.
- هل جُننت يا رجل!. قالت خالتي.
- إذا لم تُنفذي ما أقول سأجن فعلاً.. وكلكم تعرفون جنوني.

قال مهدّداً وخرج دون أن يعطينا فرصة الكلام.

أبي كان مستبدّاً، يحسب أولاده عبيداً له، لا يفكرون ولا يتألمون، يكفيهم المأكل والمشرب والمبيت فقط.. أخطأ والدي حين أراد لمن يعاملهم هذه المعاملة ويحتقرهم أن يحترموه، أو يعترفوا به.. إنه يريد موافقتهم على كل تصرفاته.. إننا نخافه ونحتقر معاملته لنا.. نحترمه خوفاً ورعباً لا محبة.

انتظرتُ واقفة وصامتة.. يبدو أن للمرء قدرة فائقة على الانتظار والتحجر في مثل هذه الصدمات، يتحول إلى صخر، ويبقى إلى الأبد بلا حراك.. كنا نتحرك تلك الليلة في دائرة العجز، ونمشي على الصراط.

أنا أختلف عن شقيقتي وفاء، إذ قلّما كنت أسمح لنفسي أن يرى الآخرون دموعي.. كنت أحتفظ بأحزاني حبيسة داخل صدري.. وجهي دائماً تشعّ فيه نظرة غاضبة ناقمة، وكانت ملامحي توحي

بالثورة أكثر مما توحي بالحزن والألم.. أما وفاء فكانت دموعها تفضحها في أي موقف، بسبب أو دون سبب.. نظرتها الحزينة لم تفارق عينيها الجميلتين ليلة زفافها.. وكم آلمتني نظراتها الساهمة ليلة عرسها، وتمنيت لو تتضاعف أحزاني مرات ومرات في محاولة لانتزاع الأحزان من أعماقها، وإسعادها تلك الليلة التي تمت بلا فرح ولا زغرودة داخل البيت.

تلك الليلة أمرني والدي أن أنام مع أخي صابر في غرفة الضيوف.. وأضاف "أما وفاء فستنام مع عريسها في الغرفة الثانية".. ثم أمسك يدها وخرج بها إلى العريس قائلاً:

- مبروك يا عريس.. هذه عروسك وهذه غرفتك لهذه الليلة.

وفي الحال أخرج العريس من جيبه علبة صغيرة، فتحها وأخرج منها خاتمين ذهبيين، كان قد اشتراهما عندما خرج ليحضر الشهود.. ألبس وفاء خاتماً ولبس هو الخاتم الآخر.. زغردت خالتي وبكت في نفس الوقت، وقالت "ألف مبروك يا وفاء"، وقبّلتها، ورأيتها تبكي للمرة الأولى، وتمسح دموع وفاء عن وجهها، وتحاول إعادته إلى نضرته.

لم أنم أنا وأخي صابر تلك الليلة، ومع أن الفجر كان يقترب، إلا أن الصبح كان بعيداً.. قام أبي توضأ وصلى الفجر.. وعلّق صابر "كيف يصلّي ويتصرف بمثل هذه التصرفات!"، ثم همس

وكأنه يحدث نفسه "هذه عادة وليست عبادة"، وراح يرقبه من ثقب الباب حتى بزوغ الشمس.. قام والدي بعد ذلك وطرق باب غرفة العروسين.. ظهر العريس بثيابه التي كان يرتديها أول الليل.. قال والدي:

- الآن وقد أصبحت زوجاً لابنتي، فليس من المعقول أن تبقى في هذا البيت.. اليوم أنت في إجازة من عملك.. اذهب وابحث عن بيت، جهّزه وارحل إليه.
- ولكن يا عمي..
- لا عمّي ولا عمك.. ضع في بيتك فرشة ولحاف وطنجرة وإبريق شاي، مع بعض الأغراض الضرورية، وتعال خذ زوجتك.

****

بقيت ووفاء طيلة النهار في الغرفة، استبدلت وفاء بفرحها قلائد حزن امتدت من الدمام إلى بيروت.. تلاصق جسدي بجسدها، وجلسنا نرقب التلفاز.

كانت المحطات تبث صور المشوّهين والمقيدين وشهداء مجزرة صبرا وشاتيلا.. يومها نسيتْ وفاء فرحها وحزنها، وراحت تصلي وتبتهل وتهيل الدموع.. دماء سوّرت أعناقنا ذلك النهار الخانق، وأغرقتنا في مستنقعات اليأس والهم والفجيعة والأحزان.

كانت محطات التلفاز العربية تبث المشاهد وتشجب المجزرة بأصوات مبحوحة، تنتحب مع الأمهات الثكالى والأرامل وتتظاهر في الشوارع الخلفية، وكأن كل شيء ضاع إلى الأبد.

ضاعت شقيقتي وفاء أيضاً.

عند المساء رحلت وفاء مع زوجها إلى بيتها الجديد.. امرأة حزينة محطمة، مسلوبة الإرادة، ممزّقة ووحيدة.

***

٢٤

أعلن والدي عن موعد زفافي.. قال إن موعده الخميس، وإن يوم الخميس لقريب.. بدا القلق سيد الموقف وأنا أنتظر الفرج مع صاحب الثوب الأبيض الذي لم أر وجهه منذ لحظة خطوبتي، ولم يرني.. في ذاكراتي رحتُ أرسم ملامح فرح لحياة قادمة.. تأملت لحظة الفرح والخروج من بيت والدي.. تألمت كثيراً في وحدتي، ولم تعد طقوس الشهوة السرية التي تولد غالباً ليلاً تستفزني.. كانت متاهات الغربة تثير الموج في حياتي.. هل أتزوج حقاً!..

الـزواج نقطـة الفصـل بـين الماضـي والمسـتقبل.. أصـير سـيدة وأتخلص من عبودية خالتي!.

خالتي بدت في أسعد حالاتها، بدت متشعّبة كـالعروق، وكالمـاء المتأهـب لاتخـاذ جميـع الأشـكال.. راحـت تعـاملني بلطـف، تـزم شفتها وتتمنى لي حياة سعيدة، لكن عقلي تداعى لشكوكه ورفض كلمـة صـدق واحـدة منهـا، وأعلـن أن رغبتهـا بزواجـي وسـيلة للخلاص مني.

بـدت حيـاتي فارغـة بعد زواج وفـاء وغيـاب أخـي فـي غياهـب سجنه، هربت مني الدموع، انحبس نبعها في قمقم أعماقي، وسكن الصمت بين جدران الغرفة عميقاً وطويلاً.

مع غيابهما تعلمت أصول الحزن والوجع، تخلّت عني الجدران وانهار السقف على رأسي.. هاتفهما كـان يـدق فـي كهف ذاكرتـي دائماً، ويأتي الصدى موجعاً ومخيفاً.. تساءلت "من قال إن الحب يموت بعد الفراق!".. القلب اكتوى بنار الفراق واحترق.

معهما كنت أستطيع اغتيال الزمن.. كنت أستحضرهما كل ليلة بعد أن أسدل الستائر وأغلق النوافذ وبـاب غرفتـي، كانـا الضـوء الذي ينير حياتي.. أما بعد غيابهما فقد تحولتُ إلى كرة صوف متداخلة، وفقدت رأس الخيط الذي يحل كل عقدي.

ظهرت لي وفاء ليلة الفرح مثل قوس قزح.. تحدثت عن زوجها كثيراً، وعن سر الفرح الذي يملأ الحياة الزوجية.. بدت راضية وقانعة بحياتها.. ضحكت وقالت "نار الزوج ولا جنة الأهل".

لم أكن مقتنعة بما قالت، ومع ذلك حلمتُ بلحظة فرح.

ألبستني وفاء بدلة العرس البيضاء، وأجلستني على مقعد مرتفع.. للمرة الثانية أجلس على هذا المقعد بانتظار المجهول.. زغردت خالتي وراحت تغني مع وفاء وبنات الجيران، ولم أكن أعرف ما يدور حولي.

قلبت الزغرودة كياني، تنبّهتُ للطرحة البيضاء التي كانت تتدلى على شعري وتغطي وجهي.. وشعرت أني مصلوبة بالبدلة البيضاء التي تراءت لي مثل الكفن الأبيض.. راحت الذكريات تموج في رأسي، تموج فيها الحياة كأنها وقعت بالأمس.. رسمت وفاء ابتسامة مصطنعة على وجهها، وتكسّرت خلف الستائر.. ومحمود ما زال قابعاً في سجنه.. تمزّقت أحلامي وانفرطت مثل عقد ينفرط.. أنا كبرت وأحلامي تقلّصت، صغرت، وراح وجه أمي يلوح لي من أفق بعيد يجلدني بنظراته المتكسرة.

تلك الليلة وبعد الزفاف مباشرة، رحلت وفاء مع زوجها إلى موصل العراق.. استسلمتْ لمقود يدور في يد القدر، وسافرت

نحو المجهول.. براكين من الأحزان المجهولة انفجرت في داخلي.. أمي أصبحت رماداً، وبتّ ووفاء الجمر الذي نختبئ تحته.

تناسيتُ ألمي للحظات، رسمتُ على وجهي ابتسامة صفراء، ورحت أرسم لنفسي معالم فرحي..

في لحظة مفقودة من زمني، جاءني العريس بعباءته السوداء وثوبه الأبيض، حملني إلى عالمه المجهول، وأغرقني في متاهة بحاره العميقة التي لا أعرف لها قرار.

لم أنظر إلى وجهه حتى لحظة دخولي صرحه الجديد.

لا أدري من أرشد وفاء ليلة زفافها، وكيف تقبّلت العريس في لحظاتها الأولى.. ربما هي الحياة والطبيعة البشرية.. ولا أدري كيف أطبقت على دماغي هذه الفكرة.. وقفتُ جانباً ورحت أتساءل "لماذا لم ترشدني وفاء، وتقص عليّ تجربتها وما ينبغي عمله؟ وهل على المرأة أن تلائم جسدها في خنوع الحيوان الداجن للاحتياجات الصادرة عن جسد الرجل!".

خذلتني قدرتي على التفكير، ورحت أنتظر حركات العريس.

أدرتُ وجهي إلى الجدار ورحتُ استرق النظر من خلال المرآة.. جلس على السرير، قام ووقف، رفع ثوبه إلى الأعلى، خلعه وألقى به جانباً، وظل واقفاً بسرواله الأبيض، قال:

- تعالي واجلسي بجانبي، سننعم هذه الليلة بما أعطانا الله من نعيم.
- بقيت مسمّرة وواقفة أنظر إلى الجدار.. أضاف:
- تعالي جانبي.

الكراهية في أعماقي أذابت جمود الخوف الذي سيطر عليّ طيلة حياتي.. كراهيتي لأبي الذي طالما أهانني بسبب أو دون سبب.. كراهيتي لخالتي التي أذاقتني الأمرّين.. كراهيتي لأمي التي باعتنا في سوق النخاسة بلا تفكير في عواقب تصرفها.. كراهيتي المسبقة لهذا الرجل الذي اقتحم حياتي دون سابق معرفة.

شعور غريب داهمني تلك اللحظة.. أحسستُ أن هذا الرجل سيحطم ما تبقّى من صباي، وراح عقلي يسخر مني.. "لا خيار لك ولا حيلة".

أذكر أني شددتُ على أسناني بغضب وغمغمتُ في قرارة نفسي "سيان، لا فرق، فلم يعد في حياتي فرق بين الربيع والخريف.. الحياة كلها خريف".

لمسني براحة يده.. اقشعرّ بدني.. ارتجفت.. قال:

- لا تخافي.. تعالي يا حبيبتي.

آه، لم أسمع هذه الكلمة منذ ولادتي.. ماذا يقول هذا الرجل!، تمنيتُ أن أسمعها ثانية.. لم يقلها.. نظرتُ إليه.. للمرة الأولى أنظر إليه.. رجل هزيل، في العقد الثالث أو الرابع من العمر، وجهه أسمر شاحب، وعيناه غائرتان تحيط بهما دوائر سوداء.

فجأة، تحوّلت القشعريرة في جسدي إلى غضب.. لم أحلم يوماً بمواصفات تمتّ لهذا الرجل.. ارتعدتُ، أبعدتُ يده عني.. كنت على وشك الانفجار، ولم أكن أدري كيف سأنفجر، بكاء أم غضباً.

رأيته يغوص في دوائر القلق والهموم والفشل.. كنت أتلوى وأقاوم.. حاول أن ينزع ثيابي.. شعرتُ أن وحشاً مرعباً يوشك أن يغرس أنيابه ومخالبه في جسدي، ثار وأخذ يقنعني.. دارت الدنيا برأسي، صرخت بأعلى صوتي.. تركني.. شهقت، انهمرت دموعي، تراجع، بدأ ينكمش ويتقوقع مثل قنفذ.. ارتدى كفنه الأبيض وانهزم أمامي للمرة الأولى.

مرّت الدقائق مثل ساعات طويلة، لم ينبس ببنت شفة، تركني أصارع الموج وحدي.

كانت الغرفة مثل تابوت يضم جثتين.

عاد من جديد، توسّل "أرجوك".

شعرتُ به ينهزم أمامي للمرة الألف.. انشطر نصفين، وطفا على السطح مثل قشة في بحر من الظلمات.

أخيراً استسلم وراح يطارحني الغرام، ابتسم، ظهرت أسنانه الصفراء من أثر التدخين.. أحسستُ بعقلي الباطني يومض ويعلن بأني سأستحيل إلى جارية لهذا الرجل بعد هذه اللحظة، قلت في نفسي "لا مفر، إنه يريد جسدي.. سيان، علقة تمتص الدماء، يبرز أظافره في جسدي وينهش لحمي، سيان.. إنه لا يعرف ما يدور داخل هذا الجسد من مشاعر.. فليأخذ القشور الزائفة".. ومع أن جسدي عاندني تلك الليلة، ولم يتقبّل جسداً آخر، إلا أني وجدت نفسي أستسلم له.

تلك الليلة لم يقطع زراً من أزرار ثوبي، أنا بنفسي خلعتُ فستان الفرح، مزّقته أمام عينيه قرب المرآة، أغمضتُ عينيّ، وطأطأتُ رأسي بين كتفي ثم ألقيت بجسدي على السرير، ورحت أطبق على شفتي بقوة كي لا يسمع صرخاتي.. وفجأة انتهى كل شيء، ورأيته يمضي باتجاه الحمام.

في المرآة المواجهة شاهدت وجهي يعبّر عن احتقار شديد، كأنما يسقط من جبيني إلى أسفل حتى يصل إلى شفتيّ.. راحت شفتي السفلى ترتجف، لا أدري كيف راودتني فكرة بأن هذا الرجل سلب مني أعز ما أملك في الحياة رغماً عن أنفي، سلب

شرفي وأنا أتفرج.. حدثتُ نفسي "لقد قتلني بفعلته".. بأسناني مزّقت شفتي السفلى، ومن خلال المرآة رأيتُ شفتي ترتجف، وقطرات من الدم تنز منها وتختلط بأحمر الشفاه.

ليلتها لم أقو على النهوض، شعرتُ أني أُبحر في ظلام دامس، راودتني رغبة في أن أصرخ بصوت مرتفع، لكنه عاد وقمع أفكاري، ارتمى على السرير بجانبي، وأسلم نفسه للنوم.

***

٢٥

ظلال من الكُرْه امتدت في أعماقي، وأحالت حياتي إلى براكين من الجحيم.. في أعماقي كنت أبحث عن رفيق درب، وحين التقيته، وجدتُ نفسي أتقوقع في كهف بارد مثل معبد قديم.

مع الأيام تحجّرت الحبال الصوتية في حنجرتي، وبدا صداه مثل عواء غريب في غابة أشباح ملعونة.. أعماقي باتت جروحاً

نازفة تجرجرني نحو الانسحاق.. امرأة سوداء الثياب ذابلة وحيدة يؤرّقها الليل.

في كهفي الجديد، عشت لأشهر طويلة سجينة مختنقة بظلام الآهات وسط سكون مميت.. كان يعود في أنصاف الليالي، يخلع ثوبه الأبيض، يتلفظ بكلمات سوقية، يدفعني للنوم معه دفعاً، ثم يغرق في شخيره حتى ظهر اليوم التالي.

هذا الرجل يستهويه الجسد، اللحم، لا يعرف معنى الحب.. وهذا ما دفعني للتساؤل "إذا كان كل الرجال من أكلة لحوم النساء وأجسادهن على شاكلة هذا الرجل!؟".

لم أره يصلي ركعة واحدة.. نبّهته أن الله يراه ويراقبه، وعليه أن يتذكر أن عليه حقوقاً تجاه ربه واتجاه زوجه وبيته.

تظاهر بالنوم في المرة الأولى، وعندما ألححتُ عليه أن يقوم ليتطّهر ويتوضأ ويصلي الفجر، ثار في وجهي وقال:

- أنت تريدين تعلّميني ديني!.

ومع كل ذلك، تمنيتُ في قرارة نفسي لو يمارس الحب معي يوماً بعد قبلة أو كلمة حب أو لمسة حنان، لكنه كان دائم الاستعجال، وكنت دائمة التمهّل.. دائماً هو المنتصر، ودوماً أنا المهزومة.

***

٢٦

قليلة هي المرات التي زارني فيها والدي مع زوجته أثناء وجود زوجي.. أما في زيارتهما الأخيرة أثناء غياب زوجي، فقد طلبت خالتي مني بصراحة أن أعطيها ما أحتفظ به من نقود، وأن أتحايل على زوجي حتى آخذ منه ما أستطيع حتى يتمكّن والدي من دفع "الدية" عن أخي محمود لإخراجه من السجن.. أما والدي فقد طلب مني أن ألمّح لزوجي حتى يشتري بيتاً جديداً ويسجّله

باسمي، ولم ينس أن يذكّرني بأني ابنته المفضلة، وتابع بلطف غير معهود بأنه يحب مصلحتي، وطلب صيغتي ومجوهراتي ليخبئها عنده خوفاً من عثرات الزمان "كما قال".

ومع أن والدي وزوجته أظهرا لي التودد والحب، إلا أنهما لم يستطيعا إخفاء ما يستبطنانه.. قلت لهما بصراحة "إني لا أريد هذا الرجل، ولا أطيق رائحته".

حبست خالتي أنفاسها، وبدأت على التو في الندب والتأوه.. أما أبي فقد تغيّرت لون الدماء في وجهه، ثار، هدّد وتوعّد، وقال:

- هذا قدرك ونصيبك وهذا زوجك، ولازم تحافظي عليه وعلى بيتك.. ماذا يقول الناس عنا!، وماذا سيفعل زوجك لو سمع ما قلت؟!.. إنه مثل أمير في بلده، ولولاه لما استطعت حل مشكلة محمود، ولما استطعت الاستمرار في عملي.

وراحت خالتي بدورها تهدّئني.. تندب حظها وتتأوه:

- آه، آخ، آه.. يا شماتة الناس فينا عندما تعودين إلى بيت أبيك مطلقة.

قلت "إن الأيام التي قضيتها عنده كانت أيام حزن وعذاب دائم". ووقفتُ ثائرة.

أحضرت خالتي كأس ماء، وطلبت مني الهدوء والجلوس وشُرْب الماء، وراحت تتودّد من جديد:

- أنت تعبانه بلا شك.. اجلسي هنا على المقعد أمامي لأحدثك كيف تتصرفين مع زوجك حتى يحبك وتكسبين ثقته.
- أنا لا أريد حبه أو ثقته.. أنا لا أطيقه أصلاً.
- الأيام كفيلة بهذا الحب.. معظم النساء يتزوجن بلا حب.. الحب يأتي بعد الزواج في معظم الأحيان.

بقيت صامته.. لم أعد أسمع كلمة مما تقول.. نبّهتني:

- وين سرحتِ يا جهاد.. ضعي ما أقوله حلقاً في أذنيك.. "وراحت تراقب الأقراط في أذنيّ والعقد الذهبي في رقبتي".. تمنّعي عليه، وقبل أن تعطيه ما يريد من جسدك، اطلبي منه ما تشائين.. لا تفرّطي بنفسك حتى يعدك بما تطلبين.. دائماً اهمسي في أذنه كلمات حب وإعجاب، وألحّي عليه حتى ينفّذ ما وعدك به.. الرجال مثل الأطفال يحبون إشباع غرورهم وغرائزهم ويعجبون للإطراء.. يحبون الكلمات الحلوة والابتسامة الناعمة.

وقبل أن تنتهي من نصائحها قالت "اقلعي يا ابنتي الأقراط والأساور، وأعطها لأبيك حتى يخبئها عنده، فزوجك كريم وغني، وسيشتري لك غيرها".

لساعات عديدة بعد رحيلهما بقيت وحيدة.. شعرت أن شيئاً انفجر في مؤخرة رأسي.. ألم رهيب أحسستُ به وراح يتوزع

علـى شـكل موجـات فـي بقيـة جسـدي، حارقـاً قاصـماً محطّمـاً عظامي، نازعاً جلدي.

****

تقبّلتُ مصيري مع زوجي ورضيت أن أكون خادمة لـه، ومع ذلك ظلّ والدي يأتيني نهاراً مع خالتي، ويحاولا أخذ النقود التي كانت تتوفّر معي، وخالتي تشكو دائماً وتتذمر "من أجل صابر الذي بقي وحيداً بعدك، ومن أجل محمود الذي قصم ظهر أبيك وحمّلنا ما لم نستطع حمله".

***

٢٧

بعد منتصف الليل صحوتُ على حركة غير عادية في البيت.. شاهدتُ زوجي يقترب من سريري تفوح منه رائحة نتنة وغريبة، ثم راح يترنّح ويتحرك داخل الغرفة بصعوبة.. أمسك ثوبي وكاد يمزقه، صفعني على وجهي بلا سبب.. ثُرت عليه ورددتُ له الصفعة بصفعة أقوى.. نظر إليّ بطرف عينه غاضباً، وسقط

على السرير بلا حراك.. وحتى الفجر بقيت أراقب أنفاسه، ثم استلقيت على الأريكة ونمت على نغم شخيره المتواصل.

ثانية صحوت على صوته يناديني من داخل الحمام، نظرتُ إليه، رأيت ظهره، هالني مدى هزاله، بدا جلده معلّقاً فوق عظامه.. كان نشيطاً على غير عادته، وعندما عاتبته عما فعله معي، بدا وكأنه لا يتذكر شيئاً مما فعله، وقال:

- مساء البارحة سهرت مع أصحابي وانبسطنا.. الله يلعنهم، أسقوني من هذا الشراب الملعون.
- أي شراب!. سألته.
- إنسي إنسي، أنا أمزح معك.. حضّري الفطور.

وديعاً كان ذلك الصباح مثل قط أليف، شعرت للمرة الأولى بميلي له وهو يقودني إلى الفراش في عز الصباح من جديد.. كنت أحس بنظراته تقع على كل موضع في جسدي، وتنفذ في ثناياه، فأرخيت أجفاني حياء واستسلمتُ ليديه.

تفتّرت مفاصلي ودبّ فيها خدر لذيذ، لذت جانباً وبي ارتعاش محبّب.. وتساءلت في قرار نفسي "كيف يستطيع الرجل أن يتصرف مثل صقر جارح، ثم يغدو حمامة هادلة مداعباً مثل رفرفة حرير حين تتأجج شهوة جسده!".

في لقاءاتنا الأولى، كان كل شيء مستعجلاً وبليداً.. كريماً كان وجائعاً لجسدي هذا الصباح، قال إن جسدي مثل رغيف طري وساخن، جاهز لإشباع شهيته.. أثارني ومحقني في نفس اللحظة.. انقبض فمه وجبينه كما لو كان سيصرخ، ولا أدري كيف تذكرت رعشة الاحتضار والموت.. الموت هو الوحيد الذي يلطّف التقاسيم.. فجأة انتهى كل شيء، ومكثت لساعة كاملة متخشّبة على السرير ومرتبكة.

لم تدم لحظات الفرح طويلاً.. تنبّه إلى العقد الذهبي والأساور الذهبية التي لم تعد تقيّد معصمي.. سألني عنها، وعندما أخبرته ثار وعاد إلى طبيعته الأولى.. كشّر عن أنيابه وتحوّل إلى وحش مفترس..

- عليك أن تذهبي إلى بيت أبيك الآن وتعيديها فوراً، أنا أعرف جشع أبيك وطمع خالتك.
- لا تغلط على أبي.
- أبوك!؟ أبوك الذي باعك.. أنا اشتريتك منه بذهبي ومالي.
- أبي أفضل منك.
- أبوك أفضل مني!.. قومي روحي وهاتي العقد والأساور، وإذا لم تحضريها لا تعودين للبيت.
- أنت تطردني من البيت!.
- فكّري كما تشائين، ما أخذه أبوك مني يكفيه طيلة حياته.

- أنا لا أفهم كلمة مما تقول.
- لا تفهمين أو تتجاهلين إني ساعدته في جمع المال لدفع الدية عن محمود.. لكن أبوك جشع، جمع أضعاف المبلغ ولم يدفع شيئاً، وما زال يتسول عند الأمراء بحجة الدّية.
- اصمت، كفى وسأعيد لك كل قرش أخذه منك والدي.
- هذا كلام مجانين، أنا أسامحه على ما أخذه مني، لكن مجوهراتك.. أنا لا أسامحه، ولازم تعيديها اليوم.

كنا نتبادل الكلمات مثل من يقذف خصمه برماح مسنونة.. كانت كلماته مثل طعنات سكين تغرز في قلبي، ونظراته تفرز احتقاراً لأبي لم أره في عينيه من قبل.. انكمشتُ على نفسي ورحت أبكي وأندب حظي.. لجمني بكلماته وهو يصرخ بأن والدي ابتزّه قبل وبعد أن يبيعني له.. ومع أني هممتُ بالعودة إلى بيت أبي، إلا أن صورة خالتي التي تراءت لي تلك اللحظة سمّرتني في مكاني، ودفعتني للتراجع عن قراري، قلت:

- أنا أعدك أن أعيد كل ما أخذه والدي، لكن أمهلني يوماً آخر.

صمتّ.. شعرتُ أنه صفح عني.. همست أعماقي "لم يبق لك أحد في الحياة غيره". نظرتُ إليه، أخفض بصره وقال "الله يلعن الشيطان". ابتسمتُ له، أضاف "امسحي دموعك، وبعدين نحكي

في الموضوع".. أرخيت لـه جسدي، وتقبّلتُ على مضض يديه تسّورني وتدفعني أمامه إلى السرير.

***

٢٨

ذات مساء، فاجأني زوجي بعزمه على الرحيل إلى مدينة أخرى ملتحقاً بعمله الجديد، لكنه لم يرحل بعيداً، رحل إلى بيت جديد في مدينة الخُبر القريبة من الدمام.. قال صراحة إنه لا يرغب بزيارة والدي أو خالتي، وطلب مني أن لا أزورهما، وهدّدني بالطلاق إذا خرجت من البيت دون أذنه.

بعد الاستقرار في البيت الجديد بأسابيع قليلة، شرع زوجي يضع النظارات على عينيه، ويتجوّل في الشوارع حتى أنصاف الليالي.. وعندما يعود، يصطحب معه شلة من أصحابه، يلجون البيت ويغلقون الباب على أنفسهم حتى الفجر.

أعراض حملٍ بدأتُ أحسّ بها.. قيء بلا سبب، عدم رغبة في الطعام، ضيق من العمل البيتي، روائح كريهة، رغبة في النوم المتواصل، كرهي المتزايد لزوجي والابتعاد عنه.. شريط حياتي يتداخل ويتسارع في ذاكرتي.. أمي، أبي، خالتي، أخواني وشقيقتي وفاء، الزواج، الطلاق، الحبَل، الإنجاب، الأطفال، الرضاعة، التربية، الضياع، قول الشاعر "هذا ما جناه عليّ أبي، وما جنيت على أحد".. أنا لا أريد أن أجني على أحد، مثل الشاعر تماماً.. أريد الخلاص من هذا الحبَل بأية طريقة دون أن يعلم زوجي.. أخفيت الخبر عنه، وراح عقلي يبحث عن طريق للخلاص من الجنين.. شعرتُ بالجنون المطبق، بالاختناق، وراحت تلاحقني سيول جارفة من الهزائم.

قفزتُ عن ظهر الخزانة.. قلبت أثاث البيت رأساً على عقب.. حملت المقاعد والأثقال، ومع ذلك راح الجنين يتشبّث ببطني ويلتصق بجدار الرحم أكثر وأكثر.

استبدل زوجي بنطالاً وجاكيت بدشداشته البيضاء وعباءته السوداء، وراح يلبسهما أيام عطلته عن العمل.. قلت له بأني "تعودتُ على رؤيته بثوبه الأبيض"، فأجاب إنه "يرافق الأجانب ويحاول أن يتمشى مع العصر".

لم يعد زوجي يعمل، تفرّغ للعب الورق والسهر مع أصحابه والاختلاء بهم طيلة النهار والليل.

ذات ليلة عاد بمشروب حقيقي وزجاجات مليئة بالخمر.. قال مبرّراً إحضارها، إنها لأصحابه الذين يسهرون معه.. وعندما حضروا، دلفوا وأغلقوا عليهم الباب بالمزلاج من الداخل.

كنت بوضوح أسمع حركاتهم وهمساتهم وحديثهم عن النساء والشراب واللواط والشهوة، وكلماتهم السوقية المبتذلة.. ولمرات عديدة فكّرت أن أقذف بهم خارج البيت مع زوجي، لكني لم أجرؤ، وعندما خرجوا قبل الفجر بقليل، كانوا يترنحون ويتلصّصون بنظراتهم داخل الغرف من الأبواب المشرعة.

شباب عاطلون، وزوجي يصاحبهم ويدخلهم بيته.. نبّهتُ زوجي لتصرفاته، وأبديت عدم رغبتي بقدومهم إلى البيت.. ثار وقال إنهم من أعز أصدقائه، وإنه يثق بهم، وأضاف "ولا مانع عندي إذا شاهدوك أو قمتِ على خدمتهم".

ثُرت، أبديت انزعاجي وطلبت منه زيارة أهلي.. قال بغير وعي:

- أنا أهلك، وأنت جزء من أملاكي، لقد اشتريتك كما أشتري أحذيتي وملابسي.

دارت معارك كلامية بيننا تلك الليلة، تحولت إلى عراك بالأيدي.. جمعتُ ثيابي في حقيبة صغيرة وأقفلت عليها.. شعرتُ إني أدفن فيها كل أحلامي وأفراح قلبي المتعفّنة.. أغلق الباب من الداخل بالمزلاج ومنعني من الخروج.. دفعته من أمامي.. منعني بكل قوته، وقال:

- أين تذهبين في هذا الليل يا مجنونة!، هل تعرفين الشوارع والطرقات!، هل تعرفين بيت أهلك!، وماذا يقول الناس عنك في الليل؟!.

بدت أعماقي مشروخة تلك اللحظة.. الأسئلة التي لا جواب عليها بدت مقنعة.. إلى أين أذهب!، أنا لا أعرف شيئاً خارج أسوار هذا البيت.. لم أقو على التفكير، وغمرت كياني مخاوف سوداء.. تكوّرت على السرير ورحت أجهش بالبكاء.

كان الوضع رهيباً.. نحن اثنان في قبر واحد، أحدنا يقذف الشتائم والإهانات، فيما كنت أصغي مأخوذة بالدهشة والارتباك..

أحسستُ بالأسى في داخلي، لكني لم أستطع أن أتوقف.. لقد تدفق كل شيء، وبدأ الحقد الأعمى يملأ كياني.

أخيراً ساد الصمت، لا بدّ لي من السكوت.. بدا لي أن وقتاً طويلاً مرّ علينا ونحن نتبادل الشتائم.. بدوت متعبة تلك اللحظة ولم أرد عليه.. صارت بي عادة، أحس ببعض الهدوء والراحة لبعض الوقت، ثم ينفذ صبري ويتلاشى شعوري بالاطمئنان، فأعود إلى الانفجار مرة أخرى.. بدوت كالمدمنة على كل شيء، لا بد لها من المزيد من العلاج بعد كل نوبة.

لم يبد زوجي اهتماماً، أدرتُ ظهري له ورحت أنظر إلى الجدار وأذرف الدموع بصمت.

مع مرور الأيام رفضتُ كل تصرفاته، وحاولت بكل الطرق التخلص من الجنين.

كان يأتيني في الليل بغير وعي، يطلب مني أن أخلع ثيابي وأرقص له، وحين أرفض طلبه يتحوّل إلى وحش رغم ضعف جسده.. كنت أشعر بقوة يديه وذراعيه، وأعماقي تجوح وهو يصول في ميدان جسدي، ويتدرّب عليه محاولاً إتقان فنونه الهمجية، قبل أن يلقي جسده على الفراش ويغوص في بحار شخيره.

من أعماقي كان يأتيني صراخ مخنوق، صراخ يشق الليل، أتكوّر على نفسي خائفة، ألملم أشلائي المبعثرة، وأذوب في عتمة الليل والقهر والغربة.

كنت أعاني.. أريد أن أضع حداً لهذه المأساة.. الفقر أرحم من هذه الحياة.. كنت أحدث نفسي والشياطين تتلاعب أمام عينيّ وفي مؤخرة رأسي.. رغبة الرحيل ألمّت بي وحاصرتني.. أنا تواقة للهروب من هذا الرجل الذي خلع كل أقنعته المزيّفة وظهر على حقيقته.. سكّير وقواد.. أغمض عينيّ وأفكّر.. لا أريد أن أرى ما يجري في واقعي.. كم حاولت أن أحلم، أطرد الكوابيس لأحلم بلحظات سعيدة.. بدت كلمة سعادة غريبة في عالمي المظلم.. كنت أصلي وأطلب الرحمة والموت.. وحدتي كانت عذاب، وكنت أدفع زوجي بعيداً عن أفكاري، أدفن رأسي تحت الوسادة وأبكي بحرارة.

***

٢٩

لا أدري كيف قضيتُ تلك الليلة، ولا أدري كيف وصلت بيت والدي في اليوم التالي!.. شعرتُ أن عصا والدي أرحم ألف مرة من أوامر زوجي.. قلت لوالدي "أنا لا أستطيع تحمّل هذا الرجل، أريد الطلاق منه".

كانت المفاجأة قاتلة بالنسبة لأبي، فغر فاه وتسمّر في مكانه، قال "أبغض الحلال!؟".

سألتني خالتي عن السبب.. بقيتُ صامته، ولم أعرف ماذا أقول.. قالت بعصبية:

- هل تعرفين معنى الطلاق!.. ربما كان هناك أمل للأرملة، أما المطلقة فقرّ وبرْد وحياة بلا أمل، حافية على مر الزمان.. الطلاق أكثر إيذاء من الموت.. الموت له نهاية، أما الطلاق فلا ينتهي أبداً.

قلت "إني متعبة"، وقمتُ إلى المرحاض.

بعد دقائق خرجتُ.. وقف والدي أمامي كمارد انبجس من وسط قمقمه المعتم، وقال "تريدين الطلاق، أليس كذلك؟!.. صحيح إن الحية لا تنجب إلا حية".

فجأة لوّح بعصاه التي كان يخبئها وراء ظهره وهوى بها على رأسي.. أحسستُ بسقف البيت يسقط على رأسي.. أذكر إني

وقعت على الأرض، راح النور يحتجب عن عيني وغبت عن الوعي، وعصا والدي تنهال على جسدي مثل ضربات سياف.

****

بات الأمل حلماً.. فريسة لشبكة عنكبوتيه محكمة الأوصال صارت حياتي، ودائماً يأتيني نداء الموت في ظلمات الليل.

كنت مثل مواد لزجة طافية على سطح ماء مضطرب، كتمتُ مشاعري ودفنتها تحت جلدي، ورضيت بحياة الهوان من جديد عند خالتي.

عدت كسيرة ومهزومة في بيت خالتي أطوي أحزاني، ودموعي على خدي لا تكاد تجف.. لم يكتمل فرحي.. كان الفرح حزناً أضيف إلى أحزاني بعد أن سجنني والدي في الغرفة ثلاثة أيام متتالية، وأغلق عليّ الباب بالمفتاح من الخارج.

لم أجد لأخي صابر أثراً في البيت، وعندما سألت عنه، زمّت خالتي شفتيها وقالت: "تحت رحمة ربه".

لم أفهم شيئاً.. أضافت:

- إنه في المستشفى يعاني من كسور في ساقه وفي ذراعه، بعد أن صدمته سيارة أثناء خروجه للبحث عن بيتك الجديد.

تكالبت المصائب على رأسي، طلبتُ من والدي زيارته، رفض وقال "إنه مثل القط بسبعة أرواح، لا يموت بسهولة، وسيخرج من المستشفى بعد أسبوع".. ولم ينس

أن يذكّرني بأني امرأة فاشلة في حياتي، ولا أستحق النعمة أنا وأخوتي، فزوجي كان يبيض ذهباً "كما قال".. لكني لم أكن أعلم إذا كان يبيض الذهب في بيتي أم في جيبه.

بعد أكثر من أسبوع، خرج صابر من المستشفى يتوكأ على عصا، ويده اليمنى ملفوفة بالجبس والشاش الأبيض ومعلّقة في رقبته.. بكى على صدري كطفل رضيع تلك اللحظة.. "آه من قهر الرجال ودموعهم الثقيلة".. قال أنه حاول الانتحار بإلقاء نفسه أمام سيارة عابرة، ورجاني أن لا أتركه وحيداً عند خالتي ثانية.

***

٣٠

صار زوجي شبحاً يطاردني، ظهر مجدداً في بيت والدي، هدّد وتوعّد إن لم أعد إليه، وهدّد والدي بلقمة عيشه.

احتالت عليّ خالتي أكثر من مرة، وحاولتْ إقناعي بالعودة إليه، كنت أرفضه من أعماقي.. فكرة الطلاق تلبّستني مثل ثيابي، وتمنيت وجود أخي محمود، محمود سندي الوحيد وكاتم أسراري، كنت أُفرغ كل ما في جعبتي عند مسامعه، وكان دائماً يدفعني للصمود، ويحاول أن يجد لي الحلول.

بذل زوجي مجهوداً أكبر في التودد لي ومصالحتي.. بعث برجال ووجوه عشائر لأبي، فوعدهم بعودتي إليه.. رفضتُ للمرة الألف، واستسلمت لقبضات أبي.. وقفت أمامه وقلت متحدية:

- اضربني، قطّعني، اسلخ جلدي، لكني لن أعود إليه.

لم أعد أحس بصفعاته، لم أعد أبكي، كتمتُ صراخي وخنقت دموعي، ومع ذلك لم ييأس والدي من عودتي إلى زوجي.. فاجأني ذات مساء يفتح الباب ويقف عابساً.. قال:

- عاد زوجك ليأخذك.
- لا أريده، وإذا أجبرتني على العودة، سأهرب من بيته ثانية أو أقتل نفسي. قلت بعصبية وتحدّي.
- أراك تنمّرت بعد الزواج. قال ذلك ووقف مهدداً متأهباً لصفعي.

- أنا قلت ما عندي.
- قلت إنك ستهربين وتعملين فضيحة.. أمك عملتها قبلك، لكن أمك ليست من عائلتنا، أما أنت فمحسوبة على العائلة.

بقيت صامتة.. أضاف:

- هل تدركين معنى كلامي!؟.

لم أجب.

- يعني أني سأقتلك.. لا، صابر سيقتلك.. أنا لن ألوّث يديّ بك.. صابر يتولى المهمة، وأخلص منكما معاً.

قلت له: افعل ما تريد، اقتلني لكني لن أعود إليه.

انهال عليّ ضرباً.. ضرب، ضرب.. لم أتزحزح من مكاني، تحجرّت دموعي وتصلّب جسدي، لم أعد أشعر أو أحس بيده الخشنة وصفعاته القوية، ولم أغيّر رأيي.. قال:

- أعطني سبباً واحداً لرفضك.

انفجرتُ: إنه سكّير وقواد، يأتي بأصحابه ويريدني أن أرقص لهم.

تخشّبت يداه وتحجّر في مكانه.. لم يصدّق.. قال:

- وتتهمين الرجل بشرفه أيضاً!.
- اسأله، أو دعه يواجهني.

لم ينبس والدي بعد ذلك ببنت شفة، وخرج من الغرفة.. بعد دقائق غادر زوجي البيت ولا أدري ما دار بينهما حتى هذه الساعة.

****

في الأيام التالية، راحت خالتي تتودّد لي، تدعوني للعشاء مع أولادها، تبتسم في وجهي وتطلب مني الراحة وتردّد:

- المرأة الحامل لا تقدر على الوقوف، فكيف وأنت تقومين بكل أعمال البيت**!**.

أرهقني الحبل، أحسستُ أني أشبَه بعجوز هرمة، شعرتُ بدوار في رأسي، التجأت إلى غرفتي وألقيت بجسدي على الفراش، أحضرتْ لي خالتي كأساً من العصير، وطلبت مني السكون والراحة.. وعند المساء بعثت لي بطعام مع أخي صابر.. قلت له:

- كل أنت، فليس لي شهية للأكل.

التهم صابر الطعام وكأنه لم يأكل من قبل، قال إنه جائع والطعام لذيذ، ثم ألقى بجسده على الفراش وغطّ في النوم.

بعد دقائق شهق وراح يتلوّى من ألم في معدته، صرخ.. هرعت خالتي مع والدي، وتساءلا عما أصابه**!**.. قلت لهما "لا أدري، تعشّى ونام، ثم قام على هذه الحالة".

- أنتِ ما أكلتِ معه؟. سألتْ خالتي.

- لا، لم تكن لي شهية للطعام.
- لا شك إنه البرد اللعين.. اغلي له ميرمية أو جعدة. قال والدي.

ركضت خالتي إلى المطبخ.. انهارت قوى صابر ووقع على الأرض.. كان يتألم ويتصبّب عرقاً مثل قطعة من القماش المبلول، صرخت: أرجوك يا أبي، خذه إلى المستشفى.

تردد والدي، لكنه اضطر لنقله أمام توسلاتي ودموعي وصراخ صابر.. وقد عرفتُ بعد عودته أنهم أجروا له عملية غسيل معدة، أثر تناوله طعاماً فاسداً، لكن الله سلّم.

في الأيام اللاحقة، اعترفت خالتي أنها وضعت في الطعام مادة تساعدني على تثبيت الجنين، ولم تكن تقصد أن تضر أو تؤذي أحداً.. أما أنا فقد لعب الشيطان بعقلي، وخمّنتُ أنها وضعت في الطعام مادة للخلاص مني ومن الجنين، وزادت بي الشكوك بأن والدي كان يعرف ذلك، ويخطط لمثل هذه العمل منذ زمن بعيد.

***

٣١

كنت متكوّرة على الأرض ووالدي يلعن الساعة التي ولدتُ فيها.. فجأة، وعلى غير موعد، ظهر أخي محمود داخل البيت..

ارتبك والدي وتسمّر في مكانه.. تغيّرت ملامح محمود في سجنه كثيراً.. طالت لحيته وتغيّرت ملامح وجهه.. صار هزيلاً وكبيراً في آن.. اندفع أخي للسلام على والدي وتقبيل يديه، سحب والدي يده من بين يدي محمود ودفعه للوراء قائلاً "روح، الله يسهّل عليك، روح دوّر مكان تنام فيه غير هذا البيت".. استعاذ أخي محمود بالله من الشيطان الرجيم وقال:

"الله يهديك يا والدي، استغفر الله وارحم من في الأرض يرحمكم من في السماء، أنا لا أستحق منك هذه المعاملة، خاصة وأن الذي حصل معي مقدّر ومكتوب".

- قلت لك أخرج ولا تريني وجهك، أنت نقمة عليّ مثل أختك.
- لا تقل ذلك يا أبي، فلله حكمة في كل ما حدث وما يحدث.
- لا تقل أبي، أنا لا أبوك ولا بعرفك.
- استغفر الله، استغفر الله يا والدي.
- أنت تعتقد أنك الوحيد المؤمن!، ابن امبارح وجاي تعطيني دروس في الدين!.. قلت لك انصرف من وجهي. وحاول دفعه خارج البيت، لكن محمود لم يتزحزح من مكانه.. فجأة هوى والدي بقبضته وصفع محمود على وجهه وأضاف:
- قلت لك اخرج من بيتي يا حيوان ولا تريني وجهك، عد إلى مكانك، وخلّي اللي كانوا يناموا معك في السجن يطعموك.

تغيّرت ملامح وجه أخي، بدا غاضباً، قال "وحّد الله يا أبي، وحّد الله".

دفعه والدي ثانية نحو الباب، تراجع أخي بمقدار خطوتين أمام قبضات أبي إلى الوراء، ثم وقف قرب الباب في وجه أبي ولم يتحرك.. دفعه أبي ثانية.. صدّه أخي بذراعيه.. ترنح أبي وكاد يقع على الأرض.. تغير وجه أخي.. تغير وجه أبي وتصبّب العرق منه.. طفح غضبه وامتد إلى شراييه وعروقه، وبكل قوته هجم على أخي، دار بينهما عراك بالأيدي، تطاولت لكمات أبي وتصلّبت، ضرب، ركل، ومع ذلك لم يستطع أن يصيب أخي بضربة واحدة.. كان أخي يتراجع أمامه ثم يدفعه بيديه بعيداً عن جسده.. وقع أبي على الأرض، دارت الدنيا برأسه، وأخذ يلهث.. صرختُ.. هرعت خالتي على الصوت واندفعت داخل الغرفة.. شتمتنا بكلمات مفهومه وأخرى غير مفهومة.. تهجّمت على أخي وحاولت صفعه.. وقف أبي غاضباً وقال:

- يا أولاد الكلبة.. هذا جزائي الذي لممتُ شملكم، كان المفروض أن أرميكم في الشوارع تشحذون لقمة العيش، ارحلوا من هذا البيت قبل أن أحمل دمكم.
- هذا أفضل.. "قال محمود بغضب"، لقد خنقت أرواحنا بأوامرك التي لا تقبل النقاش.. إني أرفض العيش معك في بيت واحد.. أرفض إحساسك الدائم أنك لا تخطئ، وإننا دائماً على خطأ.

لم ينطق والدي بحرف، تابع أخي:

- فكّر مرة واحدة أني أصبحت رجلاً مثلك، ولولا مخافة الله ووصاياه لكانت الأمور غير ما هي عليه الآن.

لم يعد للكلمات معنى، اختفى أبي مع زوجته وهي تهيل علينا الشتائم.. توبّخنا وتتّهمنا بمحاولة قتل أبينا.

تلك الليلة بكيتُ على صدر أخي محمود وأخبرته بالتفصيل الممل عن كل ما حدث أثناء غيابه، وحتى ساعات الصباح بقي أخي صامتاً يستمع ويذكر الله بين وقت وآخر، وعندما تحدث بدا وكأنه عائد من عالم آخر.. قال إنه فقد أحلامه بين قضبان السجن، وعندما فتح عينيه وجد عالمه كما تركه قبل الغياب.. عالم فارغ رديء ومزعج.. إنه نوع من الموت في خضم هذه الحياة.. وتساءل وكأنه يحدّث نفسه "كيف ينسى الناس نعيم الآخرة، ويتكالبون وراء حطام الدنيا المزيف!؟".

فيما بعد حدثني عن سجنه، قال إنها تجربة فريدة قضاها بعيداً عن الناس متفرّغاً لعبادة ربه.. حفظ معظم أجزاء القرآن الكريم، وقرأ الكثير من الكتب الدينية الموجودة في مكتبة السجن.

تغير أخي فعلاً، وعتب على والدي الذي لم يزره مرة واحدة في سجنه.. المرة الوحيدة التي رأى فيها أحد معارفه كان زوجي، وأضاف إن أمير المنطقة هو الذي دفع الدية، وأخرجه من السجن لحسن سلوكه.. وأسرّ لي بأنه سيبدأ حياة جديدة بعيداً عن أبي،

بعد أن رضي والدي على نفسه أن يأخذ النقود التي جمعها ويبيعه لغياهب السجن، كما زوّج وفاء لرجل كردي وباعني لرجل ليس في حياته شيء أبيض سوى ثوبه.

جرت مفاوضات علنية وأخرى سرية بين أخي محمود وخالتي صباح اليوم التالي.. قام والدي على أثرها وألقى بجوازات سفرنا في وجه أخي، وقال:

- تدبّر أمرك، ولا تريني وجهك بعد هذه اللحظة، أنت وأخوك وأختك.

لم يضيّع أخي محمود وقتاً أو يترك فرصة، قابل زوجي وطلب منه أن يطلّقني، لكنه رفض، وعندما هدّده أخي بفضح تصرفاته المشينة أمام الأمير إن لم يطلّق، وافق زوجي على الطلاق بشرط أن يأخذ المولود، إلا أن المحكمة رفضت الطلاق بسبب الحمل، وتأجل موضوع الطلاق حتى تتم الولادة.

***

٣٢

اقترب موعد الولادة.. راحت الأوجاع تجر وراءها ذيولاً من الأوجاع.. بعد العشاء تسلّل أخي محمود إلى غرفتي، وظهرت خالتي بيننا فجأة، قالت:

- اخرج قبل أن يراك والدك، إنه غاضب.
- لن أخرج قبل أن أصطحب جهاد إلى المستشفى.
- والدك يتدبّر أمرها، اتركها وارحل من البيت قبل أن يصحو من نومه ويراك.
- لن أغادر البيت دونها، إنها تتألم، أم تريدين أن تلد في بيتك وتموت مع مولودها!.. ثم نظر إلى صابر وقال:
- اجمع أغراض أختك وهيا إلى السيارة.

جمعتُ كل ما يلزمني من أغراض وملابس في حقيبة صغيرة، حملها أخي صابر.. توكأت على أخي محمود وخرجتُ من الغرفة.

لم أرَ والدي تلك الليلة، وظلّت خالتي واقفة تنظر إلينا ونحن نستقل سيارة الأجرة المتوقفة عند الباب دون أن تنطق بكلمة واحدة.

كنت منقادة كعربة يجرها حصان، مستسلمة لقدري، غير مدركة إلى أين أتجه.. كان الألم يأتيني على شكل موجات، والسيارة تنهب الشارع تلاحق أضوائها.. طمأنني أخي:

- تحمّلي واصبري، إن الله معنا، وحاولي أن تنامي.

- وهل المستشفى بعيد كل هذه المسافة!. تساءلت.
- لقد تحمّلتِ الكثير ولم يبق إلا القليل.

أبحرتْ في جسدي نوبة ألم جديدة.. كانت السيارة تتماوج وتسير بسرعة عالية، غرقت في غيبوبة نوم، ولم أعد أعرف ما يدور حولي.

صحوت والعرق يرشح من سائر أنحاء جسدي، شعرت أني مثل قطعة قماش مبلولة وبالية، تحسّستُ عمودي الفقري إذا كان ما زال موجوداً!.. بدا الألم حاداً مثل طعنات سكين.. كانت السيارة متوقفة، ولم أرّ غير صابر بجانبي في المقعد الخلفي، سألته:

- هل وصلنا؟!.
- لا أدري، كنت نائماً. قال.

نظرتُ حولي.. شاهدتُ سيارات كثيرة متوقفة هنا وهناك على جانبي الشارع.. رجال بثياب بيضاء ونساء بعباءات سوداء، أجانب، عمال عرب يروحون ويجيئون ويحملون أوراقاً بين أيديهم.. الساحة كبيرة والبناء فخم وكبير.. خيّل لي أني رأيت هذا المكان من قبل.. هذا ليس مستشفى.. إنه.. دارت ذاكرتي في الفراغ، موجات من الألم توالت في ظهري، تمنّيت لو أصرخ، مالت الشمس واحتجبت عن عيني.. هذا ليس الشروق، إنه مغيب الشمس.. نظرتُ إلى الساعة، كانت تشير إلى السابعة مساء..

ظهر أخي محمود والسائق من الجانب الآخر.. ركبا السيارة.. قلت "إني أتألم كثيراً يا محمود".. قال "لقد سارت الأمور على ما يرام"، وطمأنني بالوصول إلى المستشفى بعد دقائق.

مرّت الدقائق مثل ساعات طويلة، ورجل من الأمن العام ينظر داخل السيارة يتفحّص الوجوه ويتأمل وجهي ووجه أخي صابر، ويدقّق في جوازات السفر، ثم يأمر أخي محمود بالترجّل ومراجعة مكتب الأمن في الداخل.. وكأن أخي حدس بالالتباس الذي وقع لرجل الأمن أثناء تدقيق صورته على الجواز بلا شوارب أو لحية، فوضع كفه الأيمن على لحيته ليغطي شعرها الأسود الكث، وغطى بسبابة يده اليسرى شواربه، وقال لرجل الأمن مبتسماً "انظر الآن إلى ملامح وجهي، وستعرف الشبه بيني وبين الصورة، هذه الصورة قديمة، تصوّرتها قبل أن أطلق لحيتي".. ابتسم رجل الأمن وقال وهو يعيد لأخي جواز سفره:

- لا عليك، بارك الله فيك يا مطوّع.. أحببت أن أتأكد من شخصيتك وأنت تعرف القوانين، ثم أمر السائق بمتابعة سيره.

ابتسم أخي وقال "الحمد لله".. وأضاف بعد هدير محرّك السيارة واجتيازها رجال الأمن:

- لقد اجتزنا الحدود يا جهاد، وها نحن نقترب من الحدود الأردنية، ستلدين في عمان بإذن الله.

فاجأني أخي بكلماته، ولم أصدق، ومع أني تناسيت ألمي للحظات، إلا أن الأوجاع الرهيبة عادت من جديد.. ألم شفرات صغيرة وسكاكين حادة غرزت في الجزء السفلي من بطني.. شيء ما من جسدي تمزّق.. شعرتُ بمادة لزجة دافئة تتسرّب بين فخذيّ.. استلقيت على المقعد.. كظمت صراخي ورحت أتألم بصمت وأرشح عرقاً.

اندفع المولود إلى الخارج، صرخت، كدتُ أتلقّفه بين يدي، لكني شعرت به يعود.. يمزّق، يندفع ثانية، صرخت بأعلى صوتي، طغى صراخي على هدير محرك السيارة، صرخ أخي صابر أيضاً، توقّف هدير السيارة، شاهدتُ أخي محمود يحمل المولود ويلفه في بطانية بين يديه.. كنت غارقة في ألم المخاض، شعرتُ بارتخاء تام، وغبت عن الوعي.

***

٣٣

صحوت في المستشفى.. كنت ممدّدة على سرير مغطى بمفرش أبيض، وإحدى ملائكة الرحمة بثيابها البيضاء تبتسم في وجهي.. سألت:

- أين أنا، وأين طفلي؟!.
- أنت في مستشفى معان الحكومي، الحمد لله على سلامتك.. لقد أنقذناك بأعجوبة، والطفلة بخير.

أعماقي همست بألم "طفلة! إذن هي بنت، أمي وأنا، وجذور العذاب تمتد وتتطاول إلى ابنتي".

- أين هي؟ أريد أن أراها. قلت بلهفة.
- سأحضرها لك، ارتاحي أنت على سريرك.

بعد دقائق عادت الممرضة تحمل ابنتي.. حضنتها وضممتها إلى صدري، تلك اللحظة لم أر بشرتها السمراء، فقط كنت أرى عينيها العسليتين، وأتذكّر الآلام التي عاشتها ملايين النساء لمجرّد أنهن نساء.. وتساءلتُ في سريرتي "ماذا ينقص العالم وماذا يضيره لو أنجبتُ طفلاً ذكراً!.. اللهم لا اعتراض على حكمك".

حب الأمومة في أعماقي طغى على كل ملامحها وصفاتها، ضممتها إلى صدري من جديد، التصقت بثديي وراحت تلتهمه بشهية زائدة ونهم.. شعرتُ أنها نزقة منذ يوم ولادتها.. أخي محمود هو من أطلق عليها اسم "أمل" لتكون لي أملاً في الحياة،

وتعوّضني عن أيام الشقاء التي رافقتني كالتوأم "كما قال" منذ يوم ولادتي.

تأملتها من جديد.. شعرتُ بمتعة كاملة لم أعرف في حياتي سعادة حقيقية مثلها، وهمست في سريرتي "سوف أحمل صرختها الأولى بين ضلوعي أينما ذهبت".. دموع الفرح لم أستطع وقفها من عيني، وأنا أرى ابتسامتها مثل حقل دحنون.. وحين جال بخاطري والدها، شعرتُ بأن نقاط الدموع صارت حبات رمل، ولم أعد أرى غير رمال الخيبة والصحارى القاحلة والسراب.

في الحقيقة تمنيّتُ أن أراه يوم ولادة أمل، أحسستُ برغبة مكبوتة تدفعني إليه، لكن المسافة البعيدة التي كانت تفصلنا فتّحت قلبي على كُرْه جديد، ولم يعد القلب يضخ دماً نقياً بعد الولادة وسط الطريق.

***

٣٤

عاد أخي محمود لعمله السابق نجار طوبار وبنّاء.. أما أخي صابر فقد رفض العمل معه، استغل عاهته وراح يبيع علكة في الشوارع، يستدر عواطف الناس، وينظف زجاج السيارات التي تتوقف عند الإشارات الضوئية.

رضيت بواقعي، ورحتُ أقوم على خدمة جدتي التي لم تسألني عما حدث معي لأيام طويلة.. محمود هو الذي تطوّع وأخبرها بقصتي كاملة مع زوجي وأبي.. قالت لي ذات مساء:

- لا تيأسي يا ابنتي، إن رحمة الله واسعة.. إن الله لا يتخلّى عن عباده، هذا نصيبك في الحياة، فارضي به.

كانت تتحدث والمشاهد تعبر ذاكرتي كشريط سينمائي، الأحداث خلّفت عقماً في جسدي وروحي، حليبي جفّ من صدري، وشعرتُ إني مقهورة حتى نخاع العظم.

طلبتُ من أخي أن لا يثقل كاهله من أجلي وأجل ابنتي، وتمنّيت عليه أن أعمل أي عمل حتى أقهر ساعات فراغي وأقوم على تربية ابنتي، وتوفير ثمن حليبها واحتياجاتها.. رفض أخي وقال إنه "كفيل لهذه المهمة، وما عليك إلا القيام بالواجبات البيتية والتفرغ لتربية اليتيمة".

صدق أخي، أمل كانت يتيمة منذ أن حملتها في بطني، يتيمة قبل أن ترى عيناها النور، وقبل أن تولد.. سمكة صغيرة في بحر كبير كانت أمل، وكنت صنارتها.

***

٣٥

عامان مرّا على ولادتها وأمل دائمة الصراخ، زائغة العينين، شرهة حتى في طعامها، تتسلى وتلعب وحدها، ولا تأبه لما يدور حولها، وتبكي في معظم الأحيان.. كانت دموعها تهزّني، تسلبني قوتي وإرادتي.. أحسستُ أن الأمومة ليست بالأمر السهل.. أمل قلبت حياتي رأساً على عقب، أشعرتني أن هناك مسابقة في البكاء بيني وبينها، ناديتها بكل حسرات قلبي، لكنها كانت بعيدة عني، لا تسمع كلامي، وأضافت هماً جديداً إلى همومي.

مع الأيام أحسستُ أني أذبل، أذوي وأذوب.. النوم كان مقتلي، تلاحقني الكوابيس في منامي، عادت الطيور السوداء من جديد وأخذت تنقض على منامي وتجرحه، تمزق ثيابي، تتفتح جروح عميقة في وجهي وصدري وذراعي، أبكي وأتألم، تصرخ أمل في الليل، وجدتي تناديني لأصحو وأحضّر لابنتي وجبة الطعام..

هذيان أكل لساني وقلبي.. عدتُ أحدّق في عيني أمل واتأملهما من جديد.. أمل كانت اللذة التي تقطر منها الدماء، نيران أحرقت قلبي ولا زالت.. تمنيتُ أن أسمع منها كلمة "ماما"، لكنها فضّلت الصمت، استكثرت عليّ هذا النداء الخالد، وقتلت حب الأمومة في داخلي.. دفعني أخي لعرضها على طبيب، وكادت السماء تسقط على الأرض عندما أخبرني الطبيب بأنها بكماء، وهذا سبب عجزها عن النطق.

اختنقت الكلمات في حلقي، غرقتُ في صمت طويل، وتساءلت في قرار نفسي "ماذا فعلتُ يا رب، كي أستحق كل هذا العذاب!، وكي يُكتب على حياتي هذا الكابوس المتواصل؟!".

آه كم بكيت تلك الساعة، تمنيتُ أن تبتلعني الأرض، لكن الطبيب طمأنني أنها حالة مؤقتة وعابرة.. أعطاني بعض الأدوية ونصحني أن أقوم بتدريبها على النطق وجهاً لوجه من خلال حركات الشفاه.

***

٣٦

ذات ليلة حالكة السواد، دخل أخي محمود البيت برفقة صاحب الدشداشة.. أظلمت الدنيا في عينيّ، ومع ذلك تمنّيت في سريرتي أن يركض ليخطف ابنته، يحتضنها ويضمها إلى صدره، لكنه لم يفعل.. جلس على الأريكة وراح يتحدث بشموخ وغرور.

تلك الليلة أخذني محمود إلى غرفة جانبية وأخبرني أنه هو من اتصل بزوجي وأقنعه بالقدوم إلى عمان ليأخذ ابنته، وعندما لمته على تصرفه دون استشارتي، قال إنه تحايل عليه للقدوم، وطلب مني أن أقرّر فيما أريده.

قلت بأني "أرغب الطلاق، وهذا قراري النهائي".

ليلتها لم يدم الحديث طويلاً.. طلب أخي من زوجي أن يطلقني.. رفض زوجي في بداية الأمر، ثم لان وأضاف "وإذا كان لا بدّ من الطلاق، فأريد ابنتي أن ترافقني".

وافق أخي، لكني رفضت، ولم يخطر لي حتى أن أطرح إمكانية أن يحمل ابنتي معه، فالعاطفة التي تربطني بأمل من الثبات والقوة بحيث لم أعد أذكر أن له ابنه.. رغبتُ بالصراخ في وجهه، وأحببتُ أن أذكّره بثورته في وجهي بعد أن عرف أني حبلى.. كنت أعتقد إنه سيثوب إلى رشده ويحمد الله على عطائه،

وكثيراً ما فكّرت إنه سيحرص عليّ حال معرفته بحبلي.. يدللني ويحملني بين يديه، يهدهدني كالأطفال ويرتقي بي إلى عالم الخيال والحب، لكنه فاجأني تلك الليلة بثورته، قال إنه "لا يريد أولاداً هذه الأيام"، وأضاف "إنه لم يحلم يوماً أن أكون أمّاً لأبنائه، ويريد الخلاص من الجنين".

لا أدري كيف تجرأتُ تلك الليلة وألقيت بوجهه القنبلة التي طالما خبأتها بين ضلوعي، قلت:

- وأنا لا يشرّفني أن يكون والد ابني سكّيراً على شاكلتك.
- إذا كنت أنا سكّير كما تقولين، فما أنتِ سوى جارية عندي.
- أنا لست بجارية، أنا زوجتك على كتاب الله وسنة رسوله.
- وهل تعتقدين إنك الوحيدة التي تزوجت سكّيراً ثرياً!.
- ما كنت أستطيع تحمّلك لولا الحياة التي كنت أعيشها عند خالتي.
- إذن هيا عودي إلى خالتك.
- أنت تطردني ثانية من البيت!.
- إذن عليك طاعة زوجك السكّير.

بعيداً أيها الصبح.. أعماقي صرخت مقهورة.. ماذا أفعل وما زال الليل طويلاً والفجر بعيداً.. في حقبة الظلمات بدأت مسيرة

الخوف.. أذكر أني لعقت شفتي وقلت في قرارة نفسي "إني لست بحاجة لطاعة هذا الرجل السكّير".

فجأة استبدل تكشيرة أنيابه ببسمة مزيّفة، تراجعت نظراته إلى الداخل، وطلب مني برجاء أن أرتدي غلالة ملونة تشف عن جسدي، وأرقص له.

همست أعماقي "إنه مجنون، لا شك إنه مجنون".

تابع "أصحابي قادمون للعب الورق، وأريد منك أن تسعديهم، وتقومين على خدمتهم".

فجأة وجدتُ نفسي أنفجر في وجهه "مجنون، والله مجنون وقواد أيضاً".

تابع وكأنه لم يسمع "ماذا تخسرين لو قمت بطاعتي، سأعطيك كل ما تشتهين وتطلبين".

بكل لغات العالم التي أعرفها والتي لا أعرفها لعنته ولعنت خالتي وأمي، ولعنتُ أبي الذي باعني لهذا القواد.

وتساءلت في دخيلتي ماذا لو انقضضتُ عليه بيد الهاون أو بالمقعد، أحطّم رأسه وأفرّ من البيت!، ماذا سيحدث لي!.. أدور في الشوارع، أسأل عن والدي، ماذا لو اتهمني بالهروب من البيت!؟.. الشرطة تبحث عني وتلاحقني.. الرجل مصدّق وأنا

الكاذبة.. ماذا لو اتهمني بشرفي أمام والدي والشرطة؟!.. أية فضيحة سينالها شرف العائلة!.. أنا لم أنته من كابوس أمي بعد!.. وأبي!، ماذا سيقول أبي!، ماذا لو بقيت خادمة، جارية، لكن زوجي ليس بأمير، إنه حيوان تحلو له رائحة روث الحيوانات.

هذا الرجل لم يكن في حياتي سوى سراب، صحراء، أما تلك الليلة فكان لعنة كابوس وسط رمال متحركة.

***

في الليالي المعتمة، تمنيت وانتظرت عودته لنتحدث عن الطلاق.. ماذا يريد مني بالتحديد، ومن أكون أنا بالنسبة إليه!.

أخطأتُ في الأسئلة.. الزمان ليس زمان أسئلة أو أجوبة، فقد جاء هذا الرجل محمّلاً بالعواصف، إنه بركان من الأعاصير في حياتي، الرجل الخطأ في حياتي، كان ولا زال منذ البداية حتى الأزل.

باتا معاً تلك الليلة، أقنعه أخي بأنه سيعتني بأمل، وإن والدتها ستتنازل عن كل حقوقها رغم أن القانون في صالحها، ولا يمكن له اصطحاب ابنته معه وهي لم تتجاوز عامها الثالث، ولم يفارقه إلا بعد أن طلّقني في المحكمة صباح اليوم التالي، وخسرتُ كل حقوقي الشرعية.

***

تحقق الانفصال أخيراً.. كان لي قدر الطلاق كما كان لأمي من قبلي قدر الخيبة.. ورغم لحظة الفرح التي انتابتني، إلا أني شعرتُ بتقلص أعضائي من الداخل، وعدتُ بعد الطلاق امرأة حزينة ومحطّمة.. أحسستُ بنفسي في مكان لا شجر فيه ولا هواء، دخلتُ وحيدة دون جواز سفر ومن دون توجيهات، نزهة وسط بركان، بنيان غريب الشكل مؤلف من كابوس متواصل وغضب دائم، إهمال وطفلة يتيمة.. مزّق صاحب الدشداشة البيضاء أنوثتي، أعطب أمومتي، جرّدني من أحلامي ومشى.. أحسستُ أني أسافر نحو المجهول، أركض مذعورة خارج الزمن بلا توقف، أستعيد أحداث رجل انقضى، وانتظر آخر لن يأتي.. صدقت خالتي حين قالت بأن "هناك أمل للأرملة، أما المطلقة فقرّ وبرد وحياة بلا أمل، حافية على مر الزمان.. الموت له نهاية، أما الطلاق فلا ينتهي أبداً".

***

٣٧

ذات صباح أخذت أمل تتنفس بصعوبة بالغة محدثة صفيراً.. ازرقّت شفتاها واكفهر لون بشرتها وارتفعت حرارتها، وشخّص الأطباء مرضها التهاباً رئوياً جرثومياً.. أبعدتْ الطعام من أمامها مراراً مرسلةً صيحات تشبه أصوات الغربان الناعقة فوق البيوت.. بعد يومين شحب لونها وعاودها الالتهاب الرئوي، غارت عيناها، شدّت دمية من القماش إلى صدرها، وظلت مستلقية في سريرها طوال الوقت.

عاد أخي محمود من عمله، كان مجهداً.. تفرّس في وجه أمل وظل صامتاً فترة من الزمن.. حاولتُ أن أنقذه من وحدته رغم أني أنا من تريد أحداً ينقذها من وحدتها.. تمردت دمعة في عينيّ أخي أثارت في نفسي كل الشجون والمحن والذكريات.. بكيتُ بلا سبب، رغم أن كل الأسباب محقونة في دمي وتسري مع الدماء في عروقي.. قلت:

- أنت تبكي يا أخي!.

كانت الدموع تتلألأ في عينيه، لكنه لم يتح لها فرصة أن تتساقط.. قال "لا"، لكن دماء وجهه لم تخفِ الملامح التي كانت بادية تماماً عليه.

- أخبرني عما بنفسك يا محمود، أنا أختك، افتح لي قلبك.

أدار وجهه جانباً، نظر إلى الأرض محاولاً أن يتجنب النظر إلى وجهي، وقال "لقد أرسلتُ إليه ليأخذ ابنته".

كالصاعقة وقعت كلماته في أذنيّ، عشيت عينيّ، انبثقت من دمائي مسامات الأمومة المجروحة، شعرتُ بمنجل يجتث شراييني ويسحب عروقي من تحت جلدي واحداً بعد الآخر، قلت:

- لا يمكن أن أتخلى عن أمل حتى لو كانت صماء وبكماء وعمياء أيضاً.. كيف أتخلى عن نور عينيّ!.. لا يمكن.. لا يمكن أن أتخلى عنها حتى لو كانت جثة هامدة.
- أنتِ تعرفين حال ابنتك جيداً.. المرض ومصاريف العلاج الباهظة، والحياة التي بتّ تعيشينها معها.

قاطعته "أبيع دمي وأشتغل خادمة ولا أفرّط بها".

- ضاعت أمل يا جهاد.. الطبيب أخبرني أنها ستبقى صماء وبكماء بقية عمرها.. أمل لم تعد في حياتك غير صرخة.. أتفهمين معنى صرخة.. كلام غير مفهوم، وإشارات مبهمة.
- مهما كانت حالتها، فأنا لن أتخلى عنها.. إن أمل جذوري الممتدة، حياتي، زمني، ميلادي وشيخوختي وموتي.
- لا أمل فيما تقولين يا جهاد، عيشي حياتك واتركي أمل لحياتها، أمل باتت أحلام ضائعة وزائفة.

- لن يكون هذا أبداً ما دام في صدري قلب ينبض.
- بدأتِ تخرّفين يا جهاد.. فكّري بنفسك، أمل لن تنفعك في المستقبل.
- لا، لا.
- على أية حال، لقد اتخذت قراري وأرسلتُ إليه ليأتي، لكني لم أخبره عن عاهتها.

انهمرت دموعي كغيمة محمّلة بوجع أمطار موسمية طال انتظارها واحتباسها.. مع سبق الإصرار والترصّد قتلني أخي محمود هذه المرة بقراره الحاد، ورمى جثتي في حاوية على قارعة طريق مهجور.

فقدتُ القدرة على التفكير.. الأفكار في رأسي راحت تتماوج بين جزر ومدّ.. أحسستُ بلحظة انفجار في أعماقي.. اشتعلت نيران داخلي وأنا أتخيّل لحظة فراق أمل.

طردتُ الفكرة من رأسي، لم أستسغها، وأقنعتُ نفسي أن الموت أرحم.

كانت نداءات عينيّ أمل وبريقهما تعيد إلى نفسي الحياة، وحين أراها راقدة في سريرها الصغير تتألم، لا حول لها ولا قوة، كنت أنفطر ألماً من أجلها، وأنزف دماً بدل الدموع.

قال أخي محمود بعد أن عرضها على الطبيب آخر مرة "لا أمل"، واختنق صوته.

لا أعرف من أين واتتني القوة، كان عليّ أن أواجه الأطباء وحيدة، حملتها وركضتُ بها إلى المستشفى، ولأيام ثلاثة نمت معها على أسرّة المرضى.. ظلّت شاحبة مثل جثة هامدة، لا تدري ما يدور حولها، وأنا أضمها إلى صدري، أذرف الدموع وأمتص ألمها.. نزلة صدرية والتهاب رئوي حاد ألمّ بها.. وكم تمنّيتُ أن أفديها بعمري، وأنا أراها تشهق وتزفر اختناق في اختناق.

لم أسمع ما قاله الطبيب وسط طنين صمّ أذني، وسمعتني أسأل عن التفاصيل والعلاج، وكل ما راودني من أفكار، فعندما يُبلّغ المرء بقرب أجل عزيز عليه يخال الزمان توقف فجأة.. شعرتُ أن صوتي ينبثق من شخص آخر، وأحسستُ بعينيّ تحدّقان إلى أشياء غير مهمة، كلطخة على النظارة تحجب عن العين الرؤيا.. أحسستُ بخدر يعتريني، وأدركتُ أن الألم سيلازمني إلى الأبد.. أحسستُ أني صغيرة جداً ولا خبرة لي في مثل هذه الأمور، وبدا لي الموت أرحم من العذاب.

رأيت جسمها يهتز صعوداً وهبوطاً في السرير.. لم أرَ في حياتي جسداً ينتفض بمثل هذه الحركة العنيفة.. فجأة توقف

الاهتزاز وجمد في السرير، صرخت "افعل شيئاً يا دكتور".. وجهها صار بلون الرماد.. تلك اللحظة تمنيت أن يتوقف الزمن، وتتوقف الشمس في كبد السماء.. صراخها حفر في ذاكرتي ثلماً أبدياً، ومع فجر اليوم الرابع أسلمت روحها إلى بارئها.

***

الموت شكل آخر من أشكال الحياة، بدا جسدها وكأنه قطعة قماش مبلولة خالية من الحياة.. سمعتهم يرددون بأن أمل ماتت.. يقولون ذلك كما لو كنت شخصاً منفصلاً عني.. همست أعماقي "أمل لم تمت، وإذا ماتت أمل فأنا أموت معها أيضاً"، شعوري تلاشى، قهرني الموت، انتصر عليّ، توارت الحقيقة وأنا أحدث نفسي.. لماذا فعل الله هذا!، لماذا أخذ أمل وأبقاني وحيدة!؟، ألم أكن صالحة لأموت معها!.. عقلي الباطني رفض فكرة الموت من أساسها، ولم أعد أتذكر شيئاً بعد تلك اللحظة.

***

عادني الطبيب ذلك الصباح وحقنني بحقنة مهدّئة، استسلمتُ للنوم، ولم أصح إلا بعد الظهر.. قلت لأخي محمود الذي كان يجلس قربي "أمل، أين أمل!؟".

لم يتمالك نفسه، ضمّني إلى صدره وقال "الأعمار بيد الله".

وتركني أبكي وأذرف دموعي كما أشاء، وهمس في أذني بأنه قام بواجبات الدفن أثناء نومي، وإن أمل هذه الساعة في رحاب الخلد، عصفور في جنات الله الواسعة.

كانت كلماته مثل مدىً تُقطّع أوصالي، تابع:

- البقاء لله، كان موتها حكمة لا يعرفها إلا رب العالمين، لا تقنطي من رحمة الله يا جهاد.. دموعك لن تعيدها إلى الحياة.. الله هو الذي وهب، وهو الذي أخذ، ولا يجوز على الميت غير الرحمة.

همستُ "الله يرحمها"، وبكيت..

- كفى يا جهاد، امسحي دموعك وتجمّلي بالصبر، وهيا إلى البيت.

ترنّحتُ حين وقفت، لكني لم أتخلّ عن وسادتها، احتضنتها، أشفقن الممرضات على حالي، ورحن يتألمن بصمت، ورأيت بريق الدموع في عيونهن وأنا أغادر غرفة المستشفى، لا أحمل غير دموعي ووسادة أمل.

***

في البيت أحسستُ أن في وسعي الاحتفاظ بأمل دائماً في قلبي، تناولت صورتها من حقيبتي، تأمّلتها، قبّلتها، بدت صور القلب

أجمل الصور، القلب يلتقط صوراً ناطقة في لحظات خاصة، وهي مُلك للقلب وحده.

شعرتُ بفراغ رهيب يلف كياني، إنه اليوم الأول الذي أقضيه بعيداً عن أمل، تمددتُ في فراشها، تنسمتُ رائحتها، وأغمضتُ عينيّ مراراً محاولة أن أطبع في ذاكرتي تعابيرها الحبيبة، وتساءلت إن كنت مخطئة حتى يعاقبني الله بهذه القسوة!، ولا أدري كيف انتابني شعور بأن حبي لم يكن صادقاً.. لقد ماتت لأني أردت أن تكون لي وحدي، أنا لم أكن أستحقّها، الغرفة لم تعد غرفتي والأشياء لم تعد أشيائي، وأنا لم أعد المرأة نفسها التي عاشت في هذا المكان قبل رحيلها.. كل ما بقي لديّ هو ذكرى، وليس من ضمانات في هذه الحياة.

***

٣٨

بقيتُ شهراً كاملاً صامتة لا أتحدث مع أحد، محنّطة لا حية ولا ميتة، امرأة كسيرة مستسلمة للأمواج غير عابئة بمصيرها الذي بات في عالم الغيب.

في قرار نفسي كنت أعرف أن الله استرد وديعته، وإن أمل قد فارقت الحياة، لكني لم أستسغ فكرة الموت، ووجدتُ في الوسادة روح أمل التي أينعت في حياتي من جديد.. الوسادة صارت درعي الواقي الذي يحميني من الناس ومن نفسي، صخرتي التي أتشبّث بها.. أقاربي نعتوني بالجنون، واقتنعوا بجنوني وهم يشاهدوني أقف عند النافذة، وأرسم من ذاكرتي وجه أمل على البخار المتكوّن على الزجاج، ثم أعود إلى فراشي، أضم وسادتها إلى صدري وأنام.

أخي محمود هو الذي أنقذني من وحدتي وطلب مني أن أقرأ القرآن، وقال بأن "القرآن فيه شفاء، وهو الصخرة التي يجب أن نتشبّث بها وقت الشدة".. قلت في سريرتي "لو كان أخي زوجاً لامرأة لكان زوجاً مثالياً".. أعجبتني الفكرة، وعندما عرضّتها عليه، تثاءب وتذرّع بالتعب والنعاس، وقال بصراحة:

- أنا لا أصلح أن أكون زوجاً، ولم أخلق لمثل هذه المهمة.
- لماذا يا أخي، فأنت أطيب إنسان رأيته.

- أطيب أو أسوأ، سيان عندي، فتجربة أمي ما زالت تعشّش في رأسي، وأنتِ نموذج آخر في حياتي.. الزواج بالنسبة لي نهاية الحياة.
- لكنك لست مثل أبي، ولا مثل صاحب الدشداشة..
- أرجوك يا جهاد، أغلقي هذا الموضوع نهائياً.

أشفقتُ عليه من أفكاره وعذرته في نفس الوقت، وفي قرارة نفسي أحسستُ مدى كراهيته للنساء والرجال معاً.

كثيراً ما كان أخي يلتجئ للصمت، صمته كان يعذّبني، يشرب الشاي ويتمعّن في رسومات حنظلة، يزفر ويتأوه، يلتجئ إلى جدتي، يطلب منها أن تروي له المزيد عما تعرفه عن عمي الشهيد، وما أن تبدأ بالحديث حتى ينصت لها بخشوع وإجلال، كأنه يستمع إلى تراتيل آيات قرآنية، ويهمس بصوت لا أكاد أسمعه " هناك سرّ في تراب الوطن، أشعر بجاذبية نحوه، وكلما زادت الفجوة بيني وبينه أحسّ في أعماقي همساً خفياً يدفعني إليه.. في أعماقي شيء ما يشدني لرؤية عمي، ولا أدري كيفية الوصول إليه".

سألته عما يدور بخلده.. صمت، ولم يحر جواباً يقنعني.. انسلّ إلى غرفته ليختلي بنفسه، وراقبته منحنياً وجبهته غارقة بين راحتيه، يتمعّن في رسومات حنظلة.. بعد لحظات قام توضأ

وصلى.. طالت صلاته، وطال ركوعه وسجوده، ورأيت دموعه تفيض من عينيه مدراراً.. انعكس حزني العميق ومرارتي تشنجات في معدتي، أسرعت إلى غرفتي، خلوتُ مع نفسي، تحوّلت وحدتي إلى حياة جديدة.. راحت التفاصيل المنسية تتراكم في ذاكرتي، ولم تعد تستفزني.

الحياة صارت لحظة.. في اللحظة الواحدة كنت أعرى وألبس، وأغير تضاريس جسدي وحواسي لتصبح على مقاييسي.. اللحظة باتت على شاكلة حنظلة، وعلى شاكلة عودة اللاجئين إلى أوطانهم.. حلم مزعج.. فجأة انتزعني أخي من قلق اللحظة وقال:

- ألم تفكّري في مستقبلك يوماً!.. جدتك شبه ميتة، وابنتك افتقدها رب العالمين.. ألا تخافين من اللحظة القادمة؟!.
- سيان.. "قلت له"، سيان، لا فرق.
- انظري إلى نفسك، أنتِ أصبحتِ كالطيف، هاتف لا حرارة فيه، حياتك كذبة كبيرة، ماضٍ مسروق وحاضر مشروخ، ومستقبل لا أمل فيه.. أنت تدفعين نفسك إلى لحظة جنون.
- سيان، لا فرق.

في الليل راودني الطيف من جديد، عادت كلمات أخي ترن في أذنيّ، وللمرة الأولى أفكّر في حياتي، وأسمع صوتاً يحدّثني ويهزني من الأعماق "أنتِ جئت من عالم آخر إلى هذه الأرض..

أنتِ امرأة بلقع، تسيرين على قضبان الوهم، لا أحد يخاف عليك.. أنتِ عاجزة، من ينقذك من عجزك، من وحدتك ومن شيخوختك!".. وفجأة وجدت نفسي أصرخ "سيان.. الموت والحياة سيان، لا فرق".

كانت اللحظة بالنسبة لي أداة ترميم داخلي، وسيلة تفريغ.. اللحظة في حياتي بركان يموت ويولد، ويولد ويموت مئات المرات، تتقاطع لحظات موتي وميلادي، وما بين الميلاد والموت حكايات وقصص بعضها مؤلم وبعضها الآخر أشد إيلاماً.

***

٣٩

مساء البارحة، وبينما كنت أقرأ ما تيسّر لي من القرآن، عاد أخي محمود من عمله خائر القوى، انزوى داخل غرفته ولم يكلم أحداً.. ملامح وجهه بدت باهتة حزينة.. ألقى بجسده على السرير وأخفى وجهه بين راحتيه.. تملّكني شعور أنه يعاني من ألم ما، طويتُ المصحف وسألته إذا كان بحاجة لشيء؟.. مثل البارود الذي أشعلت أمامه النيران انفجر أخي من أعماقه، وقال:

- قتلوه، لقد قتلوه الأنذال.

سقط قلبي بين ضلوعي كما يقال، وشعرتُ أني أهوي في بئر عميق.. سألت "من الذي قتلوه!؟ وعمّن تتحدث؟".

تنهّد وقال:

- قرأت هذا اليوم خبراً مفاده أنهم اغتالوا والد حنظلة في لندن، لكن حنظله أكبر منهم وأقوى، حنظله لن يموت، فقط أدار ظهره للقتلة ورحل يحمل معه ابتسامته الساخرة.
- اعتقدتُ أنهم قتلوا أحد الأقارب، أو أحداً يهمنا أمره.

غطى معالم وجهه بيديه ثانية وقال:

- أنت لا تعرفين من هو حنظلة بالنسبة لي.. إنه ناجي العلي.. لقد قتلوا ناجي العلي والد حنظله.. حنظله صخرتي التي كنت أتشبّث بها أيام الشدة.

- أنت المؤمن بالله من يقول هذا الكلام!! هل نسيت إيمانك!.. الله هو درعنا وهو سندنا وهو حامينا.

أرخى رأسه بين كتفيه وهمس "ناجي العلي رفض الانحناء، ومات شامخاً، أما حنظله فسيبقى شاهدنا على الهزائم وعلى البؤس الذي نعيشه".

***

في دخيلتي كنت أعرف من هو حنظله، ومن هو ناجي العلي، ومن هو أخي محمود، كما أعرف أمل ووفاء وتاريخ القضية الفلسطينية التي فرزت كل هذا التشرد وهذا البؤس.. وكنت أحس ما تختلج به نفس أخي من جراء اغتيال ناجي العلي في هذا الزمن المستباح حيث للكلمات رائحة العفونة، وكواتم الصوت تجول في الظلام وتحبس الأنفاس.. قلت له أواسيه:

"أنت من علّمني الصمود يا أخي بعد موت أمل، هل نسيت!؟ هل نسيت ما قلته لي بأن الجبال لا تهزها الريح، ولا تقهرها العواصف".

هلّل أخي وحوقل، صمت لحظة ثم تناول المصحف من بين يدي وراح يقرأ القرآن بصوت خافت.

***

٤٠

ذات مساء حزين، رنّ جرس الباب.

في عمان الشتاء برد، والبرد صقيع.

كان محمود سارحاً في معاناته وقسوة الأيام، وفي النهاية التي آلينا إليها.

رنّ جرس الباب ثانية.. أسرع أخي وفتح الباب، وجد نفسه وجهاً لوجه أمام رجل يرتدي عباءة سوداء وثوباً ابيض.. تسمّر في مكانه وفقد مقدرته على النطق.

- جئت إليك بناء على طلبك، كما اتفقنا. قال الرجل.

ما أن سمعت صوته حتى عشيت الدنيا بعينيّ، دارت الأحداث في رأسي دورة كاملة، وهمست في قرارة نفسي "هذا الرجل سبب كل المصائب التي حلّت بنا".

راقبته من خلف الباب، كان مزهواً بلباسه مثل ديك حبشي انتفش ريشه وفرد ذيله، غراب لا يظهر إلا وتظهر معه المصائب.. جالت برأسي فكرة "لو أنقضّ عليه وأفتح رأسه بفأس".

- كأنك نسيتني!. قال الرجل.

تماوجت الأفكار في رأسي وتسارعت، تسمّر أخي في مكانه للحظات، ثم قال "انتظر لحظة".. عاد إلى الداخل وراح يبحث بين الأوراق حتى وجد شهادة وفاة أمل، انتزعها من بين الأوراق وخرج.

- خذ، هذه ابنتك، هذا ما تبقّى لك عندي، اطلب لها الرحمة.

جال صاحب العباءة السوداء بنظره في الورقة، ترنّح وكاد يسقط، تمالك نفسه واتكأ على الجدار، قال:

- ماذا تقول يا محمود!، أكيد هذه ورقة مزيّفة.
- اذهب وتحقّق بنفسك من المستشفى، وادعُ لها بالرحمة.

وقف الرجل تحت المطر لدقائق يترنّح ويضرب كفاً بكف، وسمعته يردّد "حسبي الله ونعم الوكيل، حسبي الله ونعم الوكيل"، ثم سار خطوات وغاب صوته بين التهديد والوعيد..

- دم ابنتي في رقبتك يا محمود ورقبة أختك جهاد.

اختنقت الكلمات وابتعد الصوت.

****

الفصل الثالث

٤١

رغم مرور أكثر من عشر سنوات على رحيل أمل، إلا أنها لم ترحل عن قلبي، ما زالت في ذاكرتي طيف، رائحة وسادتها عطر من عطور الجنة يعبق في أنفاسي، تسكنني، تغيّبني وتبعثني مع حكايات جدتي التي لم تنقطع يوماً، كنت أرى أمل تتجلى في دمي، وتسبح في نهر دموعي.

جدتي كانت تخيط الكلمات وتغزل الحكايا، وأخي محمود ينسجها بخياله وأحلامه، ويستنسخ منها صوراً وحكايا جديدة.. يدعو أصحابه لزيارة جدتي والاستماع لها، كان بعضهم بلحى قصيرة سوداء، لكنهم شباب بعمر أخي.. تحدثهم جدتي عن عمي الشهيد وعن الوطن.. ويتحدثون عن هاجس العودة وتحرير فلسطين وعن الحل السلمي، ويلعبون الشطرنج حتى أواخر الليل.

تتأمل جدتي صورة عمي الشهيد، وتقول أن الوطن صار قنبلة، وطريقه معبّد بالشهداء.. الشهداء فقط هم الذين يعودون إلى الوطن أحياء.

"الأجيال تفرّقت وماتت، واندثرت أجيال، لكن حب الوطن لم يمت.. غرسه الآباء في الأبناء، وتناقلته ألسن الأطفال.. جذورهم ممتدة.. جذور الوطن عميقة وصلبة، ممتدة مع الأجيال".

يستسلم أخي لحكايات جدتي، يعود طفلاً، يُشنّف أذنيه، ينام ويصحو وجدتي تغزل الكلمات.. لا تمل ولا تتوقّف عن حكايا الوطن والشهداء والهجرة والنزوح والمذابح وفصول العودة التي طال انتظارها.

كلمات جدتي صارت دمامل، قنابل في عيني أخي محمود.. كنت أراه بعد كل حكاية يدلف إلى عتم قوقعته، يتشبّث بصخرته من جديد، ينقاد إلى دوامة العودة.. الوطن، اليهود، المذابح، حنظلة.. أشعر وكأن ريحاً عاصفاً أو وحشاً مفترساً يطارده في وديان الصمت، ويدفعه نحو الموت.

وفي أوقات فراغه، كنت أراه ينشغل بمشاهدة التلفاز، يرقب ويتمعن أطفال الحجارة، الشهداء، الجنود، الحصار، المذابح، الانتفاضة، وعشرات النساء الفلسطينيات اللاتي يلدن على الحواجز الإسرائيلية ويمتن أو يموت أطفالهن، ويستمع إلى الأخبار ونفس الكلام عن دولة فلسطين المستقلة وعاصمتها القدس، والانتفاضة حتى التحرير والنصر.

الأخبار هي ذات الأخبار المكررة المحزنة، الموضوع واحد.. الانتفاضة، الحصار، الشهداء، والدعايات السخيفة التي تتخلّل النقل الحي والمباشر من الشاشات العربية والأجنبية.. ويغفو والتلفاز يبث ذات الأخبار.

***

٤٢

لم يكن أخي صابر معنا تلك الأيام، كان يعيش حلمه وعالمه الآخر، وراح يغيب عن البيت لأيام طويلة، وحين يعود، كان يتشاجر مع محمود لأتفه الأسباب.

ورغم أن أخي محمود حرص على تأمين مأكله ومشربه ومسكنه، إلا أنه رفض وتمرد بحجة أنه لا يقبل الشفقة من أحد، وهدّد محمود برفاقه إن تعرّض له، تلفّظ بأسماء لم أسمع مثلها من قبل، الصرصور والأخطبوط وصاحب الأذن الواحدة وأبو إصبع وأبو مشرط وأبو ستة، لكن محمود لم يأبه له، ضربه بعنف تلك الليلة وسجنه في البيت، وأغلق عليه الباب بالمفتاح من الخارج.

دارت دورة الزمن في ذاكرتي، وتذكرتُ ما كنت أعانيه مع أمي عندما كان والدي يغلق علينا الباب.. حملت له طعاماً وفتحت الباب، فجأة رفس الطعام برجله واندفع خارج البيت مهدّداً متوعداً.

ولولت رياح الشتاء العاتية وهجمت، وأخي محمود مقفل على نفسه الباب، بعيد منغمس داخل ذاته.

سقط رذاذ من المطر البارد، غلّف الأرض بقشرة زجاجية زلقة، وراحت الرياح الباردة تتحدث معي عبر زجاج النافذة بلغة واضحة وكلمات حزينة.. السماء تمطر في الخارج، وأنا أمطر دموعاً ولوعة في الداخل.

تعبيرات وجهي في الزجاج كانت تفضح المرارة والمعاناة التي ألمّت بي.. لا أحد يتكلم، الرعد فقط يهدر ويسخط.. الرياح تحرّك الأشجار والأمطار، وتدفع السيول إلى المنحدرات والقيعان.. بدت الطبيعة ساخطة على البشر والحجر والشجر هذا المساء.

مثل قرص كمبيوتر بدت ذاكرتي تختزن كل أحداث السنوات الماضية.. ذاكرة طفولية قديمة، ذاكرة بصرية، أحاول بكل جهدي ألا أدع مشاهدها تفلت.. لم أجد بينها لحظة فرح، ومع ذلك ما زلت أتشبّث بها.. كان محمود غارقاً في متاهات الحياة ومياه المحيط المالحة، يتشبّث بقشّة.. القشة كانت أملي وأمله في

الحياة.. قال إن صابر استغلّ عاهته وراح يتسوّل، وحين بحث في المكان الذي قيل له أنه يتسوّل فيه، لم يجده.

اختلطت الظلال بالأحلام.. تحركت كتل غامضة وقاتمة الألوان على الزجاج، وتساقطت الظلال في صمت رهيب.. انقلبت الأفكار رأساً على عقب، وتشكلت بتشكيلات مختلفة.. جهاد وأمل، أمل وجهاد، العباءة السوداء، الطيور السوداء، الدشداشة البيضاء، الكفن الأبيض، الثوب الأبيض، أبي، أمي، خالتي، أخي محمود، أخي صابر، شقيقتي وفاء، الفراق، الغربة، الأيام السوداء، الغربان السوداء، الظلال السوداء، المعاناة الدائمة، الحياة، الموت، جدي، جدتي، عمي الشهيد، الوطن، الأحلام، كابوس العودة، الشهادة، الاستشهاد، ألبوم أخي، ناجي العلي، حنظلة.. طبول زمجرت في ذاكرتي.. تسارعت قطرات المطر القوية على الزجاج، ودقت على النوافذ المظلمة، كأنها أشباح استيقظت لتوها من المجهول ومن عتمة الليل، تطلب الدخول والمبيت داخل رأسي.

***

٤٣

كنت نائمة تلك الليلة، تداعى إلى سمعي صوت أبي يسأل عني، بدا صوته غريباً وبعيداً مثل أحلام بعيدة.

"إنها نائمة".. قال محمود.

خرق صوت خالتي جدران الصمت واندفع عاصفاً ملولباً.. كان الفجر يقترب، وكنت أسبح في عرقي، عندما عرفتُ أن والدي مع بقية أفراد الأسرة عادوا إلى أرض الوطن بعد غيبتهم الطويلة.

فاجأتني خالتي بوقوفها عند رأسي وأنا أحتضن وسادة أمل.. تظاهرتُ بالنوم.. راحت تتأمل منظري وقالت:

"إذن كل الذي سمعناه عنكِ صحيح!".

غرقتُ في الصمت.. نادت والدي ليراني.. وقف قرب الباب، شاخ والدي كثيراً أثناء غيبته التي طالت.. لم يسلّم.. وددتُ لو أقفز وأسلّم عليه، يأخذني بين ذراعيه، أبكي على صدره ويربت على ظهري.. لا أريد منه اعتذاراً، أريد أن أراه يسندني فقط حتى لا أسقط.. قال بغير اكتراث "غداً نعرضها على طبيب"، وانسحب من أمامي.

قطع والدي همزة الوصل التي تربطني به.. علاقتي معه ظلّت مشروخة ومشوّهة، وتمنيت لو أموت، لو أن الله أخذني قبل هذه اللحظة.

جلست خالتي على السرير بجانبي.. ضممتُ الوسادة إلى صدري بين ذراعي، احتميتُ بها من نظرات خالتي.. قالت بلا مقدمات:

- أتعتقدين أن أمل هي الوحيدة التي ماتت.. كل النساء ينجبن ويموت لهن أولاد.

همستُ في أعماقي "لا، لا، لم تمت أمل، ما زالت بين جوانحي"، وضممتُ الوسادة بقوة وبكيت.. أضافت خالتي:

- طالما تحملين كل هذه المشاعر!، لماذا تركتِ زوجك إذن!، لماذا رفستِ النعمة وعدت مع أخيك إلى عمان!.. ماذا فعلنا لك حتى تنتقمين مني ومن والدك!.. لقد طردنا طليقك.. شوّه صورتنا وسُمعتنا أمام الخلق ودفعنا للرحيل.

لم أجب وبقيت صامتة.. أضافت خالتي:

- أنت تستحقين كل الذي أصابك.. الله انتقم لنا منك.. أفقدك عقلك، وغداً تدخلين مستشفى المجانين.

صرختْ أعماقي ثانية "لا".. لكن الصرخة تعثّرت ووقفت مثل بالون أو كرة في حنجرتي.. أضافت:

- أنا لم أكن سيئة معك كما سوّلت لك نفسك، وكما قلتِ للناس إني جعلت منك خادمة.. حاولتُ أن أسعدك بزوج مثل كل البنات.. حاولت أن أجعل منك امرأة وأعلمك الحياة، لكنك أصغيتِ لأخيك ولم تردّي عليّ.. كان أخوك يكره طليقك، ولا يريد لك السعادة معه.

صمتت لحظة، ثم أضافت "انظري إلى أختك وفاء.. لقد رضيتْ بنصيبها وقبلت بزوجها، وعاشت معه في الموصل على الحلوة والمرة، اتصل زوجها أكثر من مرة، وقال إنها سعيدة معه وفي أفضل حال بعد أن أنجبت منه ولدين وبنت، أما أنتِ فلم ترضي بنصيبك.. أنت لعنة كما قال أبوك وملعونة مثل أمك".

لا أدري ما الذي حدث بعد ذلك، لم أسمع ولم أرَ شيئاً.

صحوت في المستشفى.. قال أخي محمود "بأني أُصبتُ بنوبة عصبية مفاجئة عندما تعرّضت زوجة أبي لسيرة أمي، هجمتُ عليها، عضضتها ومزّقت شعرها، ضربتها ودفعتها عن السرير، وكاد ساقها أن ينكسر".. ثم ابتسم وقال:

- لو لم تفعلي مساء البارحة بخالتي ما فعلتِ، لفعلتُ أنا بها أكثر من ذلك، لقد فعلتِ بها ما كنت أرغب عمله منذ سنوات طويلة.

***

لم يتركني والدي بحال سبيلي، جاءني إلى المستشفى برفقة شاب طويل القامة، وجهه أسمر، وعيناه عسليتان، أطلق في وجهه لحية بشعر أسود قصير، وشاربان قصيران كأنهما مرسومان بقلم رصاص.. عرفته منذ اللحظة الأولى.. وقفا عند الباب، قال والدي:

- هذه جهاد، أنظر إلى حالها، إنها تسوء يوماً بعد آخر.

ظلّ أخي أيمن صامتاً، تمنيتُ أن يقترب مني خطوتين فقط لآخذه بين ذراعي، لكنه لم يفعل، وظلت عيناه جاحظتين يحدّق في وجهي.

غاب والدي بين دهاليز المستشفى، بينما بقي أيمن واقفاً.. قلت:

- تعال يا أخي، ألم تشتاق لي كما أشتاق لك!.

بخطوات مترددة اقترب مني، ضممته بين ذراعي وبكيت، زادت دهشته، نظر إلى وجهي وتلعثم في انتقاء الكلمات، قال:

- أنت عاقلة يا جهاد.. إذن لماذا أمي وأبي يقولون إنك..

صمت فجأة ولم يقدر على النطق.. عاد أبي ومعه الطبيب، تراجع أيمن إلى الخلف، طلب أبي من الطبيب أن يعرضني على مستشفى الأمراض العصبية، قائلاً إنها فقدت عقلها، وتعتقد أن ابنتها أمل التي ماتت منذ سنوات عديدة ما زالت على قيد الحياة.. وقال الكثير مما لم يخطر على بالي مطلقاً، لكن الطبيب أقنعه أن

حالتي سليمة، ومن الطبيعي أن يصاب المرء بحالة من الهذيان أو فقدان ذاكرة مؤقتاً حال تعرّضه لحادث أو مصيبة أو يفقد عزيزاً عليه.. وخرج.

ظلّ أخي أيمن واقفاً في مكانه يتأمل وجهي، وسمعته يقول لوالدي:

- أختي جهاد مريضة وليست مجنونة كما تعتقد أنت وأمي.
- أنت لا تعرف حالتها بعد، إنها تفقد ذاكرتها بين الحين والآخر لساعات طويلة. قال أبي.

أخفض أخي نظراته إلى الأرض، ثم جال بعينيه في غرفة المرضى، وحين تقابلت نظراتنا ثانية، ابتسم في وجهي وقال على مسمع والدي: "قسماً بالله، إنها أعقل مني ومنك".

***

٤٤

في لحظة انكسار وصرخة عقيمة، قال لي محمود ذات مساء "حين يعيش المرء بلا أحلام، يعيش بلا معنى".

تلك الليلة كان محمود ينزف ألماً وكآبة، قال أن أحلامه تكدّست في صندوق قمامة، وأنه يحس بلحظة انفجار في أعماقه، ظلّل وجهه براحتيه وأضاف أن "اللحظة في خياله صارت بعمر حياة كاملة".

عرج على موضوع أخي صابر، قال إن مركز الأمن اتصل به قبل عدة أيام، وأبلغه أن صابر يرافق حثالة المجتمع من أصحاب السوابق ومدمني المخدرات والمتسولين، وقد ألقي القبض عليه متلبساً أثناء محاولته سرقة أحد البيوت في منطقة عمان الغربية.

أما عن والدي فقال "إنه اشترى أرضاً وبنى بيتاً فخماً من طابقين، لكنه سجّل الأرض باسم زوجته وأولادها حتى لا نرث منه شيئاً".

أقنعته بأن "الله هو الغني، وأن الله لا ينسانا كما لا ينسى أحداً من فضله"، فقال:

- لكن والدي مصمّم على أن يعرضك على طبيب نفسي، ويدخلك مستشفى الأمراض العقلية.
- وهل تراني أنت كذلك!.
- لا، لكنه يعتقد ذلك، خاصة وأنت تتشبّثين بالوسادة.
- هذه ليست مجرّد وسادة، أنت تعرف إنها وسادة أمل.
- وهل هذه تصرفات امرأة عاقلة!.
- أنت الوحيد الذي يفهمني يا أخي.. أنا أعرف ما يتقوّلونه عليّ، وأعرف أن ابنتي أمل ماتت منذ زمن بعيد، لكني أحاول بكل طاقتي أن لا أنساها.. أنا أعانق الوسادة لأني أشم فيها رائحة وأنفاس أمل، إنها الشعرة التي تربطني بالحياة، القشة التي أتمسك فيها حتى لا أغرق، إنها قوقعتي، صخرتي التي أتشبّث بها، وأنت تعرف أن الطبيب أخبرني أني طبيعية كما أنا، أي أن هذا الجنون كله طبيعي.. ربما كان هذا صحيحاً، وربما أمكنني أن أكون نفسي في أحد الأيام.
- وإذا عرض أحدهم عليك الزواج، هل تقبلين؟.
- وهل المؤمن يُلدغ من جُحر مرتين!.
- ليس كل الرجال على شاكلة ذلك السكّير.
- لكن كلهم على شاكلة والدي.
- لا، لا أظن ذلك، فوالدي نسخة وحيدة على هذه الأرض.

- المشكلة والمصيبة الطامة أن يعتقد أننا لسنا أولاده.
- إنه يكابر.. هو يعرف إننا من صلبه، لكنه يكابر، يحاول أن ينتصر على أمي حتى في غيابها ليثبت وجوده أمامنا.. أمي بضعفها انتصرت على جبروت أبي، لكن أبي مثل أي رجل عربي لا يحب أن يعترف بهزيمته.
- الآباء يأكلون الحصرم والأولاد يضرسون.
- إن كيدهن عظيم، زوجته تحرّضه دائماً، تحقنه بصور مشوّهة عن تصرفاتنا، وتدفعه ليكرهنا ويحب أولادها فقط.
- أبي لا يعرف الحب، وفاقد الحب لا يعطيه.

صمت محمود، أغمض عينيه، أخفى وجهه براحتي يديه، وغرق في عذاباته فجأة.

نداء غامض كان يأتيني من الظلمات.. أحسستُ بالموت يقترب من جديد، الموت أرحم من الحياة.. فقدان الأمل يعني فقدان الحياة.

- الحمد لله "قال محمود"، الحمد لله أني لستُ مسؤولاً عن عذاب امرأة أو عذاب طفل في هذه الدنيا.
- ولماذا لا تكون مسؤولاً عن إسعاد طفل أو امرأة في عالمك!.
- أنا لم أُخلق لهذه المهمة.. نداء غامض يأتيني ويلاحقني ليلاً نهاراً، يدفعني لمهمة أفضل.

في سريرتي تساءلتُ "فيم يفكّر أخي محمود!؟".

قال إن ذاكرته تضعف يوماً بعد يوم، بصعوبة يتذكّر ماضيه، وحين ينسى المرء ماضيه، يفقد هويته.. ذكرياته بدأت تختفي شيئاً فشيئاً، ولم يعد يتذكر سوى حاضره، حنظلة حاضره، رسومات ناجي العلي حاضرة، الانتفاضة المسلحة في فلسطين حاضرة دائماً، ودائماً تشدّه إلى الحاضر والمستقبل.

تلك الليلة بدا محمود كعاصفة انفصلت عن جذورها.. كيف لا يتذكّر ماضيه!، الماضي جزء من الحاضر، يطارد المرء نحو المستقبل.. عاد محمود إلى حاضره، صلى ساعتين متتاليتن بعد العشاء، قام بعدها طلب فنجاناً من القهوة، ووقف أمام المرآة يتأمل وجهه، قال وهو يمسك بمقص الشعر بين أصابعه:

- الحمد لله، هذا نصيبنا ويجب أن نرضى به.
- الحمد لله. قلت وأنا أشعل الغاز وأحضّر القهوة.
- أعرف يا جهاد أنك عاقلة، وأعرف إنك ستتدبّرين أمرك بعد غيابي، كان الله في عونك.

صوته جاءني مرتجفاً وأنا داخل المطبخ، قشعريرة غزت جسدي، قلت:

- ماذا تقول يا محمود!، لم أفكر يوماً أنك ستتخلّى عني.

- أنا لن أتخلّى عنك أبداً، لكن أنوي السفر للعمل خارج الأردن، ولا أحد يعلم متى يموت.

لم أصدّق قول أخي بسفره المفاجئ، أحسستُ بانقباض داخلي، وشعرتُ أنه يخفي عني مكنونات صدره، حملتُ القهوة وخرجتُ إليه، كان يقف أمام المرآة يتأمل وجهه بعد أن حلق ذقنه وظهرت ملامحه الحقيقية.. فاجأني بما فعل، ورحت أتأمل وجهه.. شعر أنه يقف عارياً أمامي.. أخفى وجهه براحتيه.. قلت وأنا ابتسم في وجهه:

- أيوه يا أخي، من زمان احلق لحيتك، انظر إلى وجهك كيف عادت إليه دماء الشباب.. هل استقر رأيك على بنت الحلال!.

تنهّد وقال: لم أفكر أبداً فيما خطر ببالك، أنا مشغول بما هو أهم.

جلس وأخذ يرتشف القهوة، وفي محاولة لإخراجه عن صمته قلت:

- لماذا لا تدعني أشاركك همومك يا أخي!؟.

لم يجب، فتح المصحف وراح يرتّل الآيات بصوت مسموع.. شعرتُ بصوته ينخفض ويرتفع ويتماوج بطبقات مثل صدى، وأحسستُ أني بأمس الحاجة لمثل هذا الصوت، كان نحيباً، صار الصوت آهات درجت ترتعش داخل قلبي.. تكوّرتُ على مقعد

قريب ورحت أرقب شفتيه، وأتأمل تقاطيع وجهه من جديد.. تلك اللحظة تمنيت لو أسكن حلمه وأقيم فيه، لو أنفذ إلى غور عينيه وفكره، وأسحب منه همومه.. لو أستطيع أن أُفرغ الأحداث من حزنه.. تمنيت أن أترنّح أمام عينيه كأرجوحة وهو يقرأ القرآن.. وتمنيت لو أحوطه بذراعيّ وأهدهده وأبكي معه، لكني لم أفعل.. جاهدتُ كي أُبقي عيني مفتوحتين، وكي لا تنهمر دموعي.. كان عليّ أن أبقى قوية أمامه.. لهذا جلست أتأمله وغرقت في عذوبة صوته وهو يرتّل ما تيسر له من القرآن.

***

لم يعد أخي محمود إلى البيت بعد تلك الليلة.. افتقدته لأيام طويلة، انتظرتُ أوبته.. في الليل وفي وضح النهار تمنيتُ أن أرى طلعته البهية، ومع ذلك لم يعد.

في سريري وأنا أضم وسادة أمل إلى صدري، كان محمود يأتيني بلباس أبيض، ملاك يهبط من السماء في أنصاف الليالي، يرقبني بعينيه ولا يحدثني، وجدتي ما فتئت تردد أقوال لا تدري متى وأين سمعتها بأن "أرض الوطن تظللها سماء خجول، والموت فيها حياة لجواد جميل.. بلادنا عروس من الجن، والعودة إليها كوابيس أحلام طويلة، يلطّخها صدأ مزمن ووحول".

في ظلمات الليل، كثيراً ما كنت أستعيد كلمات أخي محمود، أتذكّره وهو يقول "الموت أهون من الولادة".. وأستعيد في ذاكرتي أيامه الأخيرة بعد أن تصالح مع نفسه، وعاش في هدوء تام.. وحدته كانت تنوح في أعماقه، لا يتكلم مع أحد، لا يسمعه أحد، ولا يفهمه أحد.. تئن جراحاته بين ضلوعه ويتألم وحده.

حكايات جدتي طويلة، لها بداية وليس لها نهاية.. حدثتنا ذات ليلة وقالت أنها سمعت عن أجداد لها بأن "في الوطن نهر من الدماء طويل تسبح فيه الأجيال، أما أرضه فقد غاب عنها الربيع، وأقسم أن لا يعود إليها إلا بعد أن تُهدم أصنام وهياكل، وتتفتّق ببراعم الشهداء لتنبت أولياء وبررة مع الورود الحمراء والدحنون والميرمية والشيح والزعفران".

جدتي مشروع أرض، مشروع عودة ومشروع شهادة .. تلقّف أخي محمود حكاياها وطار.. غاب عن عينيّ، لكنه مقيم دائم مع أمل في قلبي.

***

٤٥

لدقائق معدودة غفوت، أيقظني كابوس ليخرجني إلى كابوس أسوأ، حيث كل ما حلمتُ به كان قد حدث فعلاً..

عتمة الليل أيقظت الماضي والحاضر في أعماقي.. أمي كانت حاضرة في كوابيس أحلامي تلك الليلة.. كانت مقطّعة الأوصال، تصرخ، تشق ثوبها وتلطم وجهها بقدميها، تزحف عارية بكل الاتجاهات وسط دخان أسود كثيف.. صحوتُ من نومي وأنا أصرخ أيضاً.. عادت ذاكرتي وحاصرتني من جديد.

كان نور المصباح خافتاً، والظلال متكدّسة مثل حيوانات مفترسة متهيئة للانقضاض، ارتطم نظري في المرآة، ظلال باهتة المعالم بدوت.. منذ زمن طويل لم أتصفّح ملامح وجهي..

- من أنتِ؟ سألتني صورتي، أو من أنا!؟ سألتُ نفسي..

لم يكن إلى جانبي أحد، لا في المرآة ولا في الواقع، لم أفهم ما يدور معي أو ما يدور حولي.

بدأتُ أعارك كي أخرج من الليل، بكل قوتي حاولتُ أن أمزّق مشيمة الليل القاسية.. ارتفع صوت المؤذن فجأة.. بدا لي الآذان مختلفاً هذا الفجر، كان شجناً ولوعة يطفو فوق النيام والقيام والمكان، ينخفض ويرتفع ويتماوج بطبقات مع نسيم الفجر مثل

صدى.. يستريح المؤذن ثم يدرج صوته مرتعشاً.. انتابتني قشعريرة وسرت في جسدي مثل نسمة هواء باردة.. تهاويت وجلست على مقعد قريب.. شعرتُ أن ما تبقّى من أحلامي صار مجرد صراخ.. أريد أن أستيقظ منه ولا أستطيع.. كوابيس سجن انفرادي.

في سجني اختلطت النهارات بالليالي، لم أعد متأكدة أن الزمن يجري، وإنني من يتحرك فيه بتعثّر، أطواق من الذكريات تشابكت حول رأسي دون انقطاع.. لحظات كثيرة عبرت ذاكرتي بسرعة البرق.. كانت اللحظات تختفي تماماً وكأنها لم تكن قط.. عادت ألوان لا أعرف أين رأيتها ولا كيفية تركيبها، ألوان في غاية الإبهام.. كوابيس في غاية الإبهام.. كنت أراها بوضوح أكبر وبالإيقاع نفسه.. لا أعود الشخص الذي يتصوّر، أمضي لأصبح شخصاً يراقب.. المشهد صار هناك وأنا خارجه، كمن يرى منظراً يطل من نافذة.

والدتي كانت بطلة الحلم، في الحلم استعادت ذاكرتي ما دار من حديث بين أمي وجدتي وأنا أصيخ السمع بين النوم واليقظة في فراشي، قالت إن زوجها "يعتقد أن المرأة مثل السيجارة، يقاتل في سبيل الحصول عليها إذا اشتهاها، ثم يلقي بها على الأرض ويدوس عليها بقدمه في حال الانتهاء منها.. كل امرأة في

نظره مومس.. إنه يشك في نفسه، ويتساءل في سريرته إذا كان هو من صلب أبيه حقاً!"..

تلك الليلة، هتكت والدتي ستر الليل، فضحت سرها الذي أخفته عن أولادها طيلة حياتها، بكت وتحدثت الكثير لجدتي عن مطاردات أبي لها قبل الزواج، وعن خيبتها معه منذ ليلة الدخلة..

كلمات أمي لا زالت تدق في أذنيّ مثل المسامير.. كانت أمي كابوس حلمي تلك الليلة.. امتد الكابوس وتطاول، تحولت كلماتها في ذاكرتي إلى صور، ورأيت فيما يرى النائم والدي يجرها من شعرها كما يجر بهيمته، وهي تصرخ وتختبئ في صدر جدتي.. كان والدي يقود بهيمته بعد تعب نهار خانق ومشادة كلامية مع والده، وأخذ يشق ليله بين الأشجار المحاذية لضفة النهر الشرقية، عائداً إلى بيته في بلدة الكرامة.. لا يدري إذا كان يقود بهيمته أم تقوده البهيمة!، تراءت له أضواء بلدة الكرامة من بعيد، ترجّل عن بهيمته وسار خلفها لفترة من الوقت، ثم تركها وشأنها تشق طريقها عائدة وحدها، وجلس خلف تلّة قريبة يجر أذيال خيباته المتلاحقة.. هدأة الليل فعّلت كل شيء في ذاكرته.. مزّقت أحلامه في صدره كما الغيوم المتناثرة في السماء تمزّق ضوء القمر.. شياطين عشقه راحت تجره خلف جارته العنيدة، فتاة جميلة بعمر الورد يلاحقها بشوقه وحبه ليلاً نهاراً ولا تأبه له.. هو نفسه لا يدري لماذا تتجاهله وتصده وتستجيب لنداءات غريمه المقيم قرب

"ماتور" المياه في الجهة الغربية من بلدة الكرامة، إذ كثيراً ما شاهدهما معاً، وكثيراً ما تلاعبت شياطين الجن والإنس بعقله، وفكّر بالخلاص منه.. أحسّ بدقات قلبه تزداد خفقاناً وجسده يرتعش.. كان على استعداد أن يقوم بأي شيء، وأن يقدم لها كل شيء في سبيل إرضائها والحصول على قلبها، لكنه لم يفلح.. جالت بذاكرته كل الصور، ومع ذلك لم يصل إلى نتيجة.. تناول كتلة طينية جافة وراح يفركها بين أصابعه حتى تسرّبت كالماء.. تراءت له صورة الفتاة ثانية.. تراقصت شياطينه أمام عينيه وراح يمارس طقوسه الليلية، ويشكو همّ عشقه لهدأة الليل.. تمنى وهو يمارس مهاراته البهيمية لو بقيت بهيمته معه.. وقف وأصلح هندامه، وراح يشق طريقه إلى البيت من جديد.. خُيّل له أنه شاهد ظلالاً تتحرك خلف سور طيني قريب.. ارتعش وتحجّر جسده في مكانه، وخمّن أن أحد الوحوش تركن خلفه.. قبض على هراوته جيداً، وحمل حجراً وراح يتربّص للظلال وعقله الباطني يدفعه نحو الهروب والنجاة.. فكّر بكل شيء، إلا أن يرى عاشقين في هذا المكان.. راقبهما بحسد وغيرة عمياء، ثم تلثّم وغطى ملامح وجهه بغترته وقفز نحوهما مباشرة.. جفلا وتحركا بخوف على غير هدى.. طاردهما بهراوته وبحجارته وهوسه.. انفلت المارد من قمقمه.. صرخت الفتاة بخوف لرفيقها "اهرب اهرب"، اختنق صوت الفتاة وانكشف الأمر، ووجدت نفسها وجهاً لوجه أمام

قدرها.. ركعت عند قدميه، توسّلت إليه أن لا يفضح أمرها.. لم يجب، وراحت شياطينه تزيّن له فريسته التي طالما صدّته.. حانت لحظة الانتقام خاصة وأنها لم تتعرّف عليه.. فجأة وفي لحظة هستيرية هجم عليها بكل شراسته وهمجيته.. قاومته بكل قوتها.. مزّق ثيابها، طوّقها بذراعيه وانهال عليها بقبلاته علّه يطفئ ظمأ شوقه، غريزته انطلقت وراحت تمزق جسدها بوحشية.. سحبت الغترة عن وجهه.. صرخت "أنت! يا سافل" ودفعته بكل ما تملك من قوة بيديها وساقيها، وولّت هاربة ترتجف وتمزّق هدوء الليل بصراخها.. تلقّفها شقيقها عند الباب الخارجي.. هاله ما رأى.. صفعها حتى تهدأ، ركلها بقدمه وجرّها إلى داخل البيت.. أشبعها ضرباً ثم أسرع إلى بندقيته القديمة وهدّدها بالقتل إن لم تقل من الفاعل.. تردّدت وحاولت أن تكتم السر، لكن سياط الفضيحة أجبرتها على الاعتراف والنطق باسمه، وفي اعتقادها أنها تنتقم منه.

ركل شقيقته ثانية وجرها من شعرها إلى بيت الشاب الذي يعرفه تمام المعرفة.. كان الفجر يقترب وهو يطرق باب بيته بعنف.. أنهى والد الشاب صلاة القيام وهمس "الله يستر"، وقام وفتح الباب.. كانت الفتاة بثيابها الممزقة راكعة تنتحب، بينما حمل شقيقها بندقيته وراح يحمحم.. قال والد الشاب: "ادخل، ادخل وهات أختك معك، خيراً إن شاء الله".

أجاب بعصبية: "من أين يأتي الخير وابنك على هذه الأرض!؟.
قاطعه: اهدأ واحكي لي ما حدث".
قال: "أنت تعرف يا عمي أنك مثل والدي.. أنت الذي ربّيتنا بعد أبي وأمي.. ونحن جيران وأقارب"..
قاطعه ثانية: "المهم، قل المهم واختصر".
"باختصار ابنك عبد اعتدى على أختي، ولازم يصلّح غلطه".

لم يصدق والد الشاب ما سمع، وجلس يحدث نفسه "معقول، ابني، أولادي ربّيتهم أحسن تربية.. استغفر الله العظيم، لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.. حسبي الله ونعم الوكيل".. وفجأة هبّ واقفاً وأسرع إلى فراش ابنه.. لم يجده في فراشه.. عاد إليهما وطلب منهما البقاء في بيته حتى يعود ولده من الخارج.

جلس شقيقها يفكّر في كيفية الخلاص من مشاكله، طرح مشكلة شقيقته جانباً وراح يفكر في نفسه.. منذ زمن وتذكرة السفر إلى أمريكا بين يديه، لكنه لا يدري كيف يتصرف، هل يترك شقيقته لمصيرها، أم ينتظر ابن الحلال حتى يأتي على حصان أبيض ويخطفها.. كان يعيش في دوامة ويتمنى أن يجد الحل.. لقد ملّ الانتظار، وهذه فرصته الأخيرة.. الحظ يقف بجانبه هذه اللحظة، وحين يترك شقيقته في بيت هذا الرجل يتركها بأمان، ويتفرّغ لأعماله.. تنفّس الصعداء لهذه الفكرة.. قطع الشاب حبل أفكاره وتسلّل داخل البيت، وعندما رأى الفتاة مع أخيها ووالده تراجع

وحاول الإفلات من نظراتهم، لكن والده كان الأسرع، أغلق الباب خلفه وسأله بغضب:

"قل الحقيقة، أين كنت طوال الليل وما حكايتك مع هذه البنت؟".

تصلّبت نظراته على الفتاة ولم يجب.. حدّث نفسه "هل أقول عن عشيقها أم أصمت!.. لقد جاءت بقدميها الحافيتين تطلب الرحمة.. هل يرغمني والدي على الزواج منها!، وماذا في ذلك!.. إنها جميلة وكثيراً ما تمنيتها لنفسي، لكنها لا تحبني، وماذا في ذلك!، الحب يأتي بعد الزواج.. لن ترى أحداً بعد الزواج، وستنسى ذلك الكلب حتماً.. سأذله بزواجي منها وأكسر شوكتها".

صرخ والده "لماذا لا تجيب؟ لقد ربّيتك أحسن تربية، لكنك ابن عاق، خنت الأمانة.. ألا تعرف أن من يعتدي على أعراض الناس يُعتدى على عرضه.. الحياة ديْن وسداد.. روح الله يغضب عليك، حسبي الله ونعم الوكيل".. ثم نظر إلى شقيق الفتاة وقال له "روح جيب المأذون حتى يكتب كتابه عليها، وأنا أتحمّل المسؤولية وكافة المصاريف".

صرخت الفتاة: "لا"، وانزوت جانباً تلطم وجهها بعد أن اختنق صوتها.. أرادت أن تحتج على هذا القرار وترفض هذا الموقف، لكنها لم تستطع.. إنها لا تريده زوجاً، ولم يخطر ببالها أن تتعقّد

الأمور وتصل إلى هذه النهاية.. تريد أن تنتقم منه وتؤدّبه لا أن تتزوجه.. ومع ذلك لم تستطع النطق.. فقد صدر القرار، ووثّق المأذون الحكم، وأرخت لدموعها العنان.

***

بعد خمسة أيام تم الزفاف، وأغلق الشاب باب غرفته بالمزلاج من الداخل.. نظر إلى عروسه، كانت متكوّرة على السرير ترتدي فستان الزفاف، أوصالها ترتجف ويرقد في عينيها خوف أصم.. اقترب منها، ضمها بين ذراعيه، تمنّعت وابتعدت.. قيّدها بيديه كما في المرة السابقة وألقى بثقله عليها، استسلمت له، وراح يمارس حقه الزوجي.. فجأة توقّف كل شيء وتحجّر، جلست على حافة السرير تستر عريها، ووقف قبالتها مشدوهاً يحدّق في وجهها وتتراقص شياطين الانتقام والفضيحة أمام عينيه.. أدارت وجهها جانبا.. صفعها على وجهها، ضربها بعنف.. لم تصرخ ولم تتكلم.. استسلمت لقبضاته.. وقف جانباً وسألها: من الذي فعلها يا فاجرة؟.

قالت وهي تتحاشى نظراته وتخفي وجهها براحتيها:

"أنت تعرف والناس يعرفون".

صفعها ثانية، "قال: أنت تعلمين أني لم أقتحم سترك".

وحدّق بها بعينين جاحظتين والغضب يملأ وجهه، نظرت إليه وقالت بتحدّ:

- أخرج وقل هذا للناس، لكنك الوحيد الذي يعرف الحقيقة.. ويعرف أني عذراء وأني شريفة.. أخرج وقل لهم إن زوجتي ليست عذراء، ولنرى من يصدقّك بعد الذي فعلته معي تلك الليلة.
- يا فاجرة.. استسلمتِ له، وجعلتني أدفع ثمن عارك.. كنت تحبينه وما زلت تتستّرين عليه.

أخفتْ وجهها براحتيها من جديد، وأقسمت أنه لم يمسها، وأن علاقتهما كانت طاهرة وشريفة.. وأردفتْ "وما عدا ذلك فهو تصورّات وتخيّلات وأوهام في رأسك فقط".

- إذن من الذي فعلها؟.
- أنت، أنتَ الوحيد الذي كشف ستري، وغيّر مجرى حياتي.
- أنتِ كاذبة، وتعلمين أنك كاذبة.
- ماذا يهمك من هذا الأمر كله، طالما كنت بغيتك طوال الوقت.. ألم تحاول تركيعي طول السنوات السابقة.. هذا أنا أمامك، أنا الآن زوجتك على سنة الله ورسوله، ولا مفر لك من ذلك، افعل بي ما تشاء.
- صحيح أنك فاجرة، واللي اختشوا ماتوا.

قال ذلك وصفعها ثانية وثالثة، وأشبعها ضرباً، ومع ذلك لم تبح له عما بسريرتها، وأصرت أنه الوحيد الذي وطئ جسدها..

وكانت تلك الليلة أولى هزائم أبي مع أمي.. ورغم اشتعال نيران الشك في صدر أبي، إلا أن حياتهما الزوجية استمرت، وكنت أنا جهاد الثمرة الأولى من ثمرات هزائمه.

***

أطواق من الذكريات تشابكت في رأسي، كوابيس في غاية الإبهام.. كوابيس الطيور السوداء وديدان القصب عادت إلى أحلامي من جديد.. ديدان هرمية الشكل بعيون متورّمة سوداء راحت تنغل في جسمي، تنهش.. أحكّ جلدي، أخلع جسدي، أظافري تتخضّب بالدماء، الدماء تنزف، ونمل أبيض صغير الحجم يعض ويثقب ويرتع في جسدي.

دائماً أرى أبي يطارد أمي، وأمي تذوب وتتبخّر.

دائماً أرى أمل وأحلم بعودتها.

دائماً أرى وأتذكّر شقيقتي وفاء.

ودائماً أرى أخي محمود بأجنحة ملائكية وثياب بيضاء، وأحلم بعودته.

***

٤٦

غياب أخي عن البيت أربك حياتي.. كان التلفاز يبث مشاهد الدمار في العراق، والسماء تمطر غضباً في شوارع بغداد.. تداعى إلى سمعي صوت جرس الباب.. فاجأني صابر بقوله إنه طرق الباب عدة مرات قبل أن أفتح له، وقبل أن أسأله أي سؤال رماني بجملة أشد وأعنف من قذيفة مدفع، قال بلا مقدمات:

- أبوك في حالة نزاع، ويطلب رؤيتك.
- فأل الله ولا فألك، من الذي أخبرك؟.
- كنت عنده مساء البارحة، وطلب رؤيتك.

لم أفكّر طويلاً.. في لحظة انكسار وضعف حطّمتُ حواجز الماضي وركضتُ إليه.. صورة والدي لم تفارق مخيلتي منذ أيام طفولتي.. سرق أحلامي ولم يُبق لي غير السراب والفراغ.. كنت ألهث والظلال ترسم صوراً لأشياء غريبة ومزعجة.. قال صابر إنه خرج من السجن بعد أن قضى مدة عقوبته، وأضاف ساخراً وهو يدلف البيت أمامي:

- قال إنه تاب إلى الله، ويريدنا أن نسامحه قبل أن يموت!.
- الأعمار بيد الله، والله وحده يقبل التوبة من عباده.

***

في بيته الجديد، وعلى سرير في غرفة جانبية، كان والدي مسجى على فراشه، ومغطّى بحرام صوفي تتوسطه صورة نمر.. جثوت عند قدميه، أهداني ابتسامة عذبة لم أرها على وجه إنسان قط من قبل.. أحسستُ أني مثل عصفور ذبيح يتلوى ويعارك بقطرات دمه آخر لحظات حياته، وفي لحظات قليلة ترجّلت الروح مقهورة وأخلت سبيل جسده.

والدي لم يرحل من ذاكرتي، ما زال يعشّش في ثقوبها.. وجهه العريض الشاحب، لحيته البيضاء، نظراته المستعطفة، جسده المسجى في الفراش.. ضعيفاً كان في لحظاته الأخيرة على غير ما كنت أتصوّره دائماً وأتذكره.. والدي الذي حرمني من رؤيته لأعوام طويلة، رحل أخيراً إلى مثواه الأخير والدموع تلاحقه.

***

بالأمس وعند تشييع جثمان والدي عرجتُ إلى قبر ابنتي، زرتها في مقبرة أم الحيران، شعرتُ أني لم أزر أمل الحقيقية، بل زرت أمل التي في قلبي وبين ضلوعي.. همست أعماقي من جديد "سوف أبقى أحتضنها أبداً كما البحر يحتضن الشمس لحظة غروبها".. شعرتُ أني تواقة للنواح في أقرب مسجد.. أمل كانت مسجدي ونواحي وأملي.

في البيت بدت وسادة أمل كمرآة، حدّقت في الوجه الصغير، خُيّل لي أني أرى في عينيها دمعتين مثل حبتي لؤلؤ.. تساءلت في سريرتي "من أين لهاتين العينين الساحرتين هذه الدموع".. عشا ليلي غشي عينيّ، اختنق صوتي، وتمنّيتُ لو تعود إلي أمل.. وحدّثتُ نفسي "آه لو تعود إلى الحياة مريضة، فأنا على استعداد لتمريضها مائة سنة.. إني أقبلها حتى لو كانت في غيبوبة دائمة، آه لو تعود إليّ ولو مرة واحدة".

***

٤٧

كانت الشمس في نزاعها الأخير، وجدتي تسرد حكاياها وتقنعني "أن الموت لا يوقف مسيرة الحياة.. الحياة لا تتوقف، قد تتبدّل أو تتغير أو تأخذ شكلاً جديداً.. لكنها لا تنتهي".. وانتهت الدموع في عينيها إلى حبتي رمل.. الموت حقيقة مذهلة، ويستحيل على الأم التي فقدت ابنها أن تستوعب أو تقبل بفكرة موته.

كنا وحيدتين رغم كثرة البشر واتساع هذا العالم.. فتاة حزينة تتكئ على شجرة سنديان عتيقة.. جدتي أطلال قديمة بعمر أجيال..

ذات مساء أخذت تسرد حكاياها على مسمعي وترقب التلفاز.. فصل جديد من فصول الانتفاضة المسلحة والحرب على العراق.. الشاشات تنقل الأخبار.. الحرب على العراق طغت على أخبار الانتفاضة الفلسطينية.. انشقت الأرض فجأة وابتلعت حماة بغداد، ذاب الجيش العراقي وتبخر.. الفضائيات تبث على مدار الساعة.. غيّروا أسماء الأماكن والشوارع كما يغيّرون ملابسهم، وفندق فلسطين وسط بغداد صار شاهداً على لحظة فاصلة بين زمن وزمن.. الدبابات الأمريكية دخلت بغداد.. سقطت العراق في أيدي القوات الغازية، وأنا وجدتي نتفرج على التلفاز، نقاتل من خلال الصور ونحدّق بذهول.. نحرق البخور ونستجدي تباشير الفرج من خيولنا الخشبية.. نهبوا القصور، نهبوا المستشفيات، نهبوا البنوك، نهبوا متحف بغداد، والقوات الغازية تتفرج.. ولا أحد يعرف كيف انتهت الحرب بهذه السرعة وسقطت تماثيل بغداد.

كنت أشاهد التلفاز وأرى التاريخ يعيد نفسه عبر الذاكرة، وقطعان التتار تعبر حواري بغداد من جديد هائجة كقطع الليل.. هولاكو يحتل بغداد، وجيش المغول يجتاح الأرض العربية، يدوسون رقاب العرب، والناس يتفرجون بعيون بلهاء على الفضائيات، ويصفقون للفاتح الجديد.. ماذا يجري!؟ تساءلت في قرار نفسي، وتمنيتُ لو أصرخ.. بدا السؤال أسخف من الأمنية وأعقم من كل الأجوبة.. غياب أخي عن البيت أربك حياتي..

تمنيتُ عودته ليشرح لي ما حدث وما يحدث.. آه، كم تمنيت أن أراه تلك اللحظة، كم تمنيت أن أراه ليتحدث معي، المهم أن يقول شيئاً، ويحاول شرح ما لا أفهمه مما حدث ويحدث.

جدتي هي الوحيدة التي اعتقدت أنها فهمت كل شيء ولم تقل شيئاً، كانت تحدّق في التلفاز مشدوهة وتحدث نفسها "من خمسة وخمسين سنة وأنا أسمع العرب يقولوا بدنا نرجّع فلسطين.. هاي لحقتها العراق.. سيّسوا النيل وأخذوا الفرات، وأبصر الدور جاي على مين!.. اتفو على هالدنيا.. مطالب العرب كثرت وما زالوا يقاتلوا بالحكي.. جعجعة بلا طحن.. وين المدافع والصواريخ، ولاّ بس شاطرين على بعض.. كلهم بحكوا وبطالبوا، لا حدا سامعهم ولا هم عارفين شو بدهم.. زي الأطرش في الزفة.. قال بدنا نحارب قال!، وبدنا نرجّع البلاد!.. موت يا حمار".

"قومي قومي يا جهاد اغلقي التلفزيون وخلينا ننام، أحسن من سمّة البدن".. وزفرت بآهٍ طويلة وتمدّدت في الفراش، ثم همست بصوتٍ مقهور وهي تغطّي رأسها بالحرام الصوفي الثقيل حتى لا تسمع شيئاً "طول عمرك يا زبيبة..".

وحدي بقيت جالسة أحدّق في مشاهد الحرب والدمار على شاشة التلفاز.. كانت الفضائيات تبث أخبار العراق لحظة بلحظة، وتنقل أخبار الانتفاضة، انتفاضة فلسطين حاضرة دائماً.. المدن

محاصرة، الطرق مغلقة، والقاذفات الإسرائيلية تدك مخيمات اللاجئين ومدن الضفة الغربية وقطاع غزة، وتدمّر البيوت دون جدوى، ودون أمل بالوصول إلى نتيجة.. الفرصة الوحيدة والمتبقية للخروج من هذا النزيف الدائم هو الاعتراف المتبادل "كما يقول السياسيون والمحللون في محطات التلفزة".. أمام الفريقين طريق واحد فقط "السلام".

"خبر عاجل"، تناقلته الفضائيات..

"في خبر عاجل، هزّ انفجار عنيف السوق التجاري وسط مدينة القدس الغربية، وفي معلومات أولية أن هناك عشرات القتلى والجرحى.. وسنوافيكم بالأخبار حال ورودها من المصدر".

أصوات تأتي من البعيد.. أصوات قريبة تصم الآذان.. الشاشات العربية والأجنبية تتبارى في نقل الأحداث.. الشهداء يتساقطون، الفلسطينيون يتساقطون، العراقيون يتساقطون، مزيد من القتلى، مزيد من الشهداء، مزيد من الحزن، مزيد من الأمهات الثكالى، مزيد من الزغاريد، ولا يفل الحديد إلا الحديد.

الفضائيات تنقل الأخبار بسرعة مذهلة، انتقل الخبر من محطة إلى أخرى، كل المحطات تنشر الصور وتنقل البث المباشر من موقع الانفجار.

"في خبر عاجل، صرّح مصدر مسؤول بأن العملية البطولية نفّذها المناضل الشهيد محمود عبد السلام، وقد تبنّتها مجموعة شهداء الأقصى".

قشعريرة سرت في جسدي وهزت أوصالي، راح قلبي يخفق ويتسارع في نبضه مثل طلقات رشاش.. وجاءت الصورة بوضوح أكثر.. ظهر أخي محمود على الشاشة الصغيرة يحمل بين يديه بندقية كلاشنكوف ومصحف، وقد لفّ جسده بالعلم الفلسطيني المطرز بالحرير الأحمر والأسود الأبيض والأخضر.

للمرة الأولى أرى أخي محمود منذ يوم رحيله، كان قد قرّر الالتحاق بمواكب الشهداء، وعاد ليغرس دمه في فلسطين زيتوناً وحرية.. قرّر بنفسه أن يشيّع نعشه ويسوّي مراسم دفنه قبل أن يقف أمام الكاميرا ويدبّج كلماته "من أجل فلسطين، من أجل دماء الشهداء، من أجل النساء والشيوخ والأطفال، من أجل عمي الشهيد، ومن أجل كل من أحبّ تراب الوطن..".

سقطت الكلمات في عينيّ وعلى رأسي مثل القذائف والقنابل والصواريخ، صرخت، زغردت جدتي، قالت إنه شهيد، وأضافت:

"الحمد لله الذي أطعمه الشهادة كما أطعمها لعمّه من قبله".

مواسم الشهداء لم ولن تتوقف، دائماً في حلٍ وترحال.. توقّفت الكلمات في الحناجر، صرختُ، بكيت، تألّمت.. تراءت لي الخفافيش والطيور السوداء من جديد، اندفعتُ إلى حضن جدتي، ضمّتني بين ذراعيها، ورحتُ أنتحب مثل طفلة يتيمة.

****

السيرة الروائية للمؤلف

الاسم: إبراهيم ذيب نافع الفقيه

اسم الشهرة: إبراهيم عوض الله الفقيه

- قاص وروائي أردني.
- مواليد صوبـا / القدس / عام ١٩٤٦م .
- حصل على ليسانس في الآداب/ قسم اللغة العربية.
- عمل مدرساً لمدة عشرة أعوام .
- لا يكتب إلا إذا شعر أن لديه شيئاً جديداً يريد أن يقوله.
- عضو رابطة الكتاب الأردنيين .
- نشر العديد من المقالات والقصص القصيرة في الصحف والمجلات المحلية والعربية.
- **صدر له** :
- الهذيان – روايـة – دار الزهراء – بيروت عام ١٩٧٥م .
- القربان – مجموعة قصصية – دار عمار ، عمان ١٩٩٠م .
- ما زال للصبار روح – رواية – دار النهضة، عمان ١٩٩٣م . طبعة ثانية لرواية "جذور في طريق التحرير" الصادرة عن دار الزهراء في بيروت عام ١٩٧٤م
- الصمت المعبر – رواية – دار عمار ، عمان ١٩٩٦م .
- صوبـا – إحدى قرى فلسطين المدمرة عام ١٩٤٨م في منطقة القدس – تاريخ وطن وحياة قرية – عمان ١٩٩٦م .

- الخريف واغتيال أحلام – رواية – دار النهضة ، عمان ١٩٩٦م
- الأرض الحافية – رواية – دار الينابيع ، عمان ١٩٩٩م .
- نوافذ الغضب – رواية – دار الحرية، دار الينابيع، عمان ٢٠٠١م.
- ظمأ السنابل – رواية – دار اليازوري، عمان ٢٠٠٧م

إبراهيم الفقيه
البريد الإلكتروني: faqeh46@hotmail.com
موقع صوبا: www.subaa.com